مَن أنت أيّها الحبّ؟

الأب فرانس ڤان در لوخت
اليسوعيّ

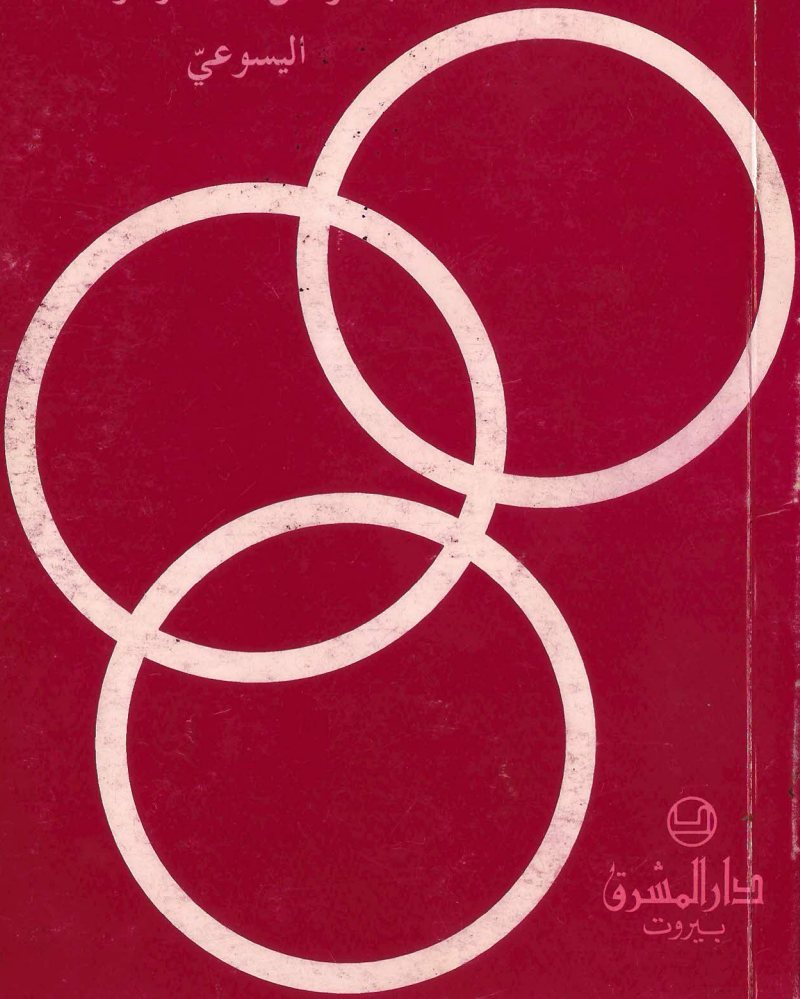

دار المشرق
بيروت

مَن أنت
أيّها الحبّ؟

الأب فرانس فان در لوخت
اليسوعيّ

طبعة رابعة

دار المشرق
بيروت

لا مانع من طبعه

بولس باسيم
النائب الرسوليّ للآتين
بيروت، ١٩٩٦/٢/٢٠

جميع الحقوق محفوظة، طبعة رابعة ٢٠٠٦
دار المشرق ش.م.م،
ص.ب. ١٦٦٧٧٨
الأشرفية، بيروت ٢١٥٠ ١١٠٠
لبنان
http://www.darelmachreq.com

ISBN 2-7214-1138-1

التوزيع: **المكتبة الشرقيَّة**
الجسر الواطي – سنّ الفيل
ص.ب: ٥٥٢٠٦، بيروت، لبنان
تلفون: (٠١) ٤٨٥٧٩٣
فاكس: (٠١) ٤٨٥٧٩٦ – ٤٩٢١١٢
Website: www.librairieorientale.com.lb
E-mail: admin@librairieorientale.com.lb
E-mail: libor@cyberia.net.lb

١٣٥٣-٥، ١-٢٠٠٦/٧/٣١

أَلقيتُ محاضرة في إحدى القرى حول وجود الله، وبعد المحاضرة سألني أحد الشبّان عن الحب. فتكلمت في هذه المناسبة على الحب قبل الزواج. وبعد انتهاء المحاضرة، سألني رجل مسنّ:

– كيف تتحدث، يا أبتي، عن العلاقة الجنسية قبل الزواج؟

فأجبته:

– أنا لا أتحدث عن الجنس، بل عن الحب.

فقال لي:

– ألا تعرف، يا أبتي، أن الحب هو الجنس؟

وفي مناسبة أخرى، دار الحوار التالي بيني وبين أحدهم:

– إذا أردت، يا أبتي، أن تكتب عن الحب، فآمل أن تكتب عن الحب السماوي، لا كما نفهمه نحن.

– كيف تفهمه أنت؟

- الحب هو الجنس.

- والحب السماوي؟

- إنه الحب الذي لا يشوبه الجنس.

- أليس من الممكن أن يعبّر الإنسان المتزوج عن الحب من خلال الجنس؟

- لا، يا أبتي، لا تخلط بين الأمرين، فهذا موضوع، وذاك موضوع آخر.

يرى بعضهم أن الحب هو الجنس، وهذا مفهوم قائم عند الفرنسيين عندما يقولون: نريد أن نمارس الحب: faire l'amour نريد أن نمارس الجنس.

سنرى فيما بعد أننا، إذا فهمنا الحب بمعناه الصحيح، فلا يمكن أن نقول إننا نمارسه، لأن الحب هبة من قلب الحياة، من قلب الله، وليس هو ملك الإنسان.

هناك أناس لا ينظرون إلى الحب نظرة جنسية بحتة، ولكنهم لا يدركون أن ما يسمونه حبًّا ليس هو بحب، ثم يدركون هذه الحقيقة فيما بعد. في مرحلة ما قبل الزواج، يقول الخطيبان: «إننا نحب». وبعد الزواج يقول الكثيرون منهم: «لم نعد نشعر بذلك» أو « ما كنا نسمّيه حبًّا لم يكن حبًّا».

يقول أحدهم: « لقد اعتقدت بأنني، إذا كنت غيورًا على زوجتي، فأنا أحبها، ولكنني اكتشفت فيما بعد أن هذه الغيرة ليست حبًّا، بل تملكًا».

ويقول آخر: «كنت أفعل كل شيء بحسب إرادة

خطيبتي، ولكنني أدركت فيما بعد أن هذا الحب هم محو الشخصية».

تقول إحداهن: «كنت أقول لحبيبي: أموت بحبك، وكان يجيب: هل يمكن أن تحبيني لهذه الدرجة، ولكنني اكتشفت بعدها أنني لا أستطيع أن أحب حبيبي إذا متّ بحبّه ولم أعد على قيد الحياة».

يقول آخر: «كنت أبحث في البداية عن إنسانة تكمّلني، كي أصبح من خلالها كاملًا، ولكنني قلت لنفسي فيما بعد: «كيف ستصبح كاملًا على حساب امرأة تكمّلك، تستغلّها حتى تكمّل نقصك، دون أن تولي أية أهمّية لهذه المرأة في حد ذاتها».

هناك أناس يعتقدون طوال حياتهم بأنهم يحبون الآخرين حبًّا صافيًا دون أن يدركوا أنهم يستغلّونهم. وهناك أهل يستغلّون أولادهم في سبيل مصالحهم الخاصة، وهم يعتقدون بأن حبّهم لأولادهم صافٍ.

أمام هذه المفاهيم المختلفة والخاطئة عن الحب، يسأل الإنسان الحب بأشد الإلحاح: «من أنت أيها الحب؟».

هذا السؤال سيرافقنا طوال صفحات هذا الكتاب...

القسم الأول

الحب المزيَّف

سنبحث في علاقتين مهمَّتين في حياتنا :

أولًا : العلاقة بين الحبيب والحبيبة .

ثانيًا : العلاقة بين الأهل والأولاد .

لنكتشف من خلالهما أن ما نسمّيه حبًا ليس هو أحيانًا إلّا مصلحة وإرضاء حاجات معيّنة ، هو قناع نخفي وراءه بشكل واعٍ أو لاواعٍ نظرتنا الاستغلالية والمنفعية الى الحياة .

العلاقة بين الحبيب والحبيبة

سنوضح من خلال أربعة أمثلة مدى بعدنا عن الحب، في الوقت الذي نعتقد أننا نعيش في كنفه.

أ) المثال الأول

تقول نجاة: «أحب أيهم كثيرًا، (أجن فيه - أموت فيه)، ومستعدة لأن أضحّي بنفسي من أجله، ومستعدة لأن ألبي كل طلباته، بدونه لا معنى للحياة. إذا مات، أفقد عقلي، ولكن، ومثلما أضحي بنفسي من أجله، عليه بالمقابل أن يكون مخلصًا لي، أغار عليه من أية علاقة قد تقوم بينه وبين فتاة أخرى».

نجاة تموت في أيهم: ذلك يعني أنها لا تملك شخصية مستقلة، إنها تمحي نفسها وتعيش كليًّا من خلاله. لقد تركت ذاتها (بيتها الداخلي) لتعيش في ذاته (بيته الداخلي). تنفّذ كل رغباته: لقد دفنت نفسها في أرضه، وعليه بالمقابل أن يكون كليًّا لها، يعيش منها ومعها. إنها تريد أن تكون مصدر سعادته الوحيد، فلا تتحمل أن ترى فتاة غيرها تسعده.

من المحتمل أن يسعد ذلك أيهم في البدء، فماذا يريد أكثر من ذلك؟ لقد كان بيته موحشًا، وكان يحسّ بالعزلة. وفجأة دخلت بيته فتاة وقالت له إنه كل ما تملك وأنها تريد العيش معه وتحقيق امنياته. ومن المحتمل أيضًا أن يفخر بهذه القيمة المطلقة التي أعطته إيّاها نجاة، ولكن قد تدور في ذهنه بعد ذلك تساؤلات عدة مثل: كيف أستطيع أن أحب هذه الفتاة وهي تموت فيّ؟ كيف أحب جثة؟ كيف تستطيع أن تحبّني بعد أن تخلّت عن ذاتها وعن بيتها؟ لماذا تخلّت عن ذاتها كليًّا؟ ألا تحب ذاتها؟ هل جاءت إليّ هربًا من ذاتها؟ أين هي من الحبّ إذًا؟

وشيئًا فشيئًا يحس بأنه لا يستطيع أن يحب نجاة لأنها كميتة لا تُحَب ولا تُحِب. لقد تركت أرضها وصارت لاجئة عنده، فيحس بثقل وجودها، ويوضح لها تدريجيًّا أن بيته ليس ملجأً.

وتحس نجاة من جهتها أن أيهم لم يعد يرغب فيها، مما يولّد عندها خوفًا شديدًا فيدفعها اعتقاد خاطئ بأنها إذا ضحّت أكثر فلن يتخلّى أيهم عنها، ليتركها في صحراء نفسها، فيدفعها إلى مزيد من التضحية والخضوع. وتأتي النتيجة عكسية، فكلما زادت في إلغاء ذاتها، ازداد بعده عنها ليطلب منها في النهاية مغادرة بيته.

فلماذا تخلّت نجاة عن ذاتها كليًّا؟ ولماذا أرادت أن تموت بآخر وبهذا الآخر تحديدًا؟

يحب الإنسان أحيانًا أن يموت في آخر عندما يفقد

الأمل في تحقيق ذاته وأحلامه. فكل واحد منا يملك صورة مثالية عن ذاته يحب تحقيقها، وعندما لا تتحقق يصاب بخيبة أمل، ويستولي الحزن واليأس عليه. وعندها قد يلتقي الشخص الذي يحقق أحلامه فيسأل نفسه بشكل واعٍ أو لاواعٍ: «لماذا لا أتماهى بهذا الشخص الذي يحقّق أحلامي، لأعيش صورتي المثالية من خلاله؟ أنا لم أعش قط، أنا ميت، من خلاله أحيا».

لسنا هنا أمام شخص يريد أن يموت في آخر، إذ إن هذا الشخص ميت منذ البداية، ولكنه كميت يريد أن يعيش في الآخر الذي يمثّل صورته المثالية. فإذا تزوجه فهو لن يتزوج الآخر كآخر، بل سيتزوج صورته المثالية فيه. سيتزوج مثاليته التي لم يستطع تحقيقها من قبل في حياته الشخصية. لقد صار الآخر مرآة يرى نفسه فيها كما أحب أن يكون. ينكر حقيقته وحقيقة الآخر ويموت الاثنان معًا، ليُدفنا في صورة مثالية.

يمكننا القول، من خلال هذه العلاقة بين الحبيبين، إن الحبيبة تدفن ذاتها في صورتها المثالية التي تراها في الحبيب، وتجبر حبيبها أن يدفن نفسه فيها أيضًا. عليه أن يتماهى بهذه الصورة حتى تستطيع أن تحب ذاتها فيها.

إن علاقة كهذه في واقع حياتنا اليومية تكشف بعد فترة للحبيبة أن حبيبها ليس مثاليًا كما كانت تراه، وتكشف للحبيب أنه ليس حبيب الحبيبة، بل صورتها المثالية. وبشكل عام، إما أن تنقطع العلاقة بعد هذا الاكتشاف أو تبدأ على أسس جديدة.

بعضهم يبحث عن الحبيب المثالي الذي يذوب فيه، وبما أنه لا يجده في الواقع فهو يبحث عنه في حياته الخيالية ويعيش معه علاقة بعيدة عن الواقع.

فالأغاني والتراتيل تساعده أحيانًا على الهرب من ذاته وواقعه الصعب، ليذوب في علاقة خيالية مع الحبيب المثالي أو مع المطرب، متخلّيًا عن كيانه الخاص.

من رسالة غرام لعبد الحليم حافظ:

«ما منعرف بكره من مبارح
ولا دقة قلبك من قلبي
مش قادر على بعدك ثانية
أبدًا أبدًا يا حبيبي
ولا عارف أيه طعم الدنيا
أبدًا أبدًا يا حبيبي».

من أغنية أخرى

«يا حبيبي عشت أجمل عمر في عينيك الجميلة».
«رح ذوّب كل الشوق في هذه الكلمة
أحبك. أحبك. أحبك».

هنا ينسى الحبيب نفسه، ينسى الزمن، ليذوب في عيني الحبيبة الجميلتين من خلال كلمته «أحبك». يذوب قلبه في قلبها، حضوره في حضورها، ويذوب الغد في الأمس. الحب هنا ليس مسيرة في الواقع الزمني، لها حاضر وماضٍ ومستقبل، تحمل النمو والتطور الديناميكي، إنه حالة ذوبان.

إن الحب في الحقيقة مغامرة صعبة على أرض الواقع،

فيها موت وقيامة، فيها ألم وفرح، والذين لا يرغبون في أن يعيشوا هذه المغامرة في الواقع أو أخفقوا في ذلك، يجدون في هذا النوع من الأغاني عالمهم المفضل، يجدون مهربًا خياليًا من صعوبات الحب، يعوضون عن موتهم الداخلي باللجوء الى حياة خيالية، اصطناعية.

وكم تكون الصدمة كبيرة في كل مرة يعودون فيها من عالمهم الخيالي إلى واقع أعماقهم وكم يكون حزنهم كبيرًا.

ب) المثال الثاني

التقى عامر تمارا في حفل، فبهر بها وقال: «إنها هي، إنها الوحيدة التي كنت أنتظرها منذ الأزل، معها وحدها أستطيع تحقيق ذاتي». هل رأى عامر تمارا كما هي، أو حسب صورته المثالية عن المرأة؟

يقول عامر: «كنت انتظرها منذ زمن طويل»، وكأنه يملك صورة معينة عن المرأة وهو ينتظر أن يلتقي في الواقع نسخة عن صورته الأنثوية ليتزوجها. في هذا المثال نستشف أن كل شخصية تنطوي على صفات مذكرة وصفات مؤنثة. يقول پيير داكو في كتابه «الانتصارات المذهلة في علم النفس الحديث» (ص ٣٤٩):

تتصف «الذكورة (القرين) بأنها: فاعلة - نافذة - ثاقبة - مخصبة - عدوانية - عقلانية - مذكرة - صلبة».

وتتصف الأنوثة (القرينة) بأنها: مرنة - نفوذة - خصيبة - لاعقلانية - حدسية - عاطفية - حنونة - وديعة - متلقية».

ليس من السهل دومًا أن نحدّد ما هو ذَكَري وما هو أنثوي، إذ تختلف النظرة إليهما بحسب المجتمع والعصر، ولكننا نستطيع القول إن كل إنسان يمتلك صفات مذكرة وأخرى مؤنثة. وعليه إن يسعى إلى تحقيق الاثنين معًا. ولكنه يخفق في ذلك عندما يتخذ الأهل والمجتمع موقفًا سلبيًا من قرينته، أو من قرينه، أو من الاثنين معًا.

فإذا كانت الأم تكره الرجل مثلًا، يصعب عليها أن تكوّن لدى ابنتها صورة إيجابية عن الرجل (القرين) كما ويصعب على الرجل أن يحب قرينته ما دام المجتمع يدعوه قائلًا: «إذا أردت أن تكون رجلًا، فاكبت كل ما هو أُنثوي فيك، لا تُظهر عواطفك، بل عضلاتك، لا تكن حنونًا، ناعمًا. لا تبك، كن قاسيًا، افرض نفسك ووجودك، وليبق الحق دائمًا معك. كن رجلًا بكل معنى الكلمة واحذر من أن تكون كالأطفال أو أن تلاعبهم، فإن ذلك يقلّل من قيمتك».

كيف يستطيع الرجل في هذا المجتمع أن يحقّق أنوثته التي هي جزء من ذاته؟ هذا المجتمع الذي يجعله عدو قرينته، يجبره على رفضها، وكبتها. وعندما لا يستطيع الرجل أن يعيش مع قرينته داخل بيته الشخصي، فإنه يبحث عن امرأة تشبه هذه القرينة ليتمكن على الأقل من أن يعيش مع قرينته من خلال هذه المرأة. وعندما يصادف

امرأة قريبة من قرينته، فمن الطبيعي أنه سيشعر كما لو كان يعرفها وينتظرها منذ زمن بعيد.

ويمكننا القول إن عامر كان ينتظر في لاوعيه امرأة قريبة من قرينته المكبوتة ليعيش معها من خلال هذه المرأة. وهذا نوع من العلاقات غير سوي على الإطلاق، إذ إن تمارا حبيبة عامر لأنها قرينته. إذاً فهو لا يحبها لذاتها، بل يحب قرينته فيها، ويعيش من خلالها جزءًا من ذاته. لذلك يحب امتلاكها حتى تكمّل نقصه؛ عليها أن تكون معه أينما ذهب، فيغار عليها، ويراقبها حتى لا تفلت منه، مخاطبًا إياها: «أريدك لي فقط، أنت جزء مني». ويفكر بشكل لاواعٍ: «إن تركتني تمارا، ستأخذ جزءًا من ذاتي معها، لأعيش وحدي مشوَّهًا».

المرأة هنا قرينة الرجل فقط، سجينة صورته عنها. تختنق في هذا السجن، ومن المستحيل أن تتنفس بشكل حر في حقيقتها الذاتية المستقلة.

في هذه العلاقة، لا نجد عامر وتمارا، بل عامر وحده يقوم بعلاقة مع قرينته المكبوتة، من خلال تمارا.

في المثال الأول: أحست نجاة أنها ميتة، لا حياة فيها، تريد أن تعيش في آخر، فتركت نفسها كليًّا وذابت في شخص آخر، هو مثالها المطلق. ليس هذا الشخص دومًا قرينها فقط، بل ذاتها كلها أحيانًا (قرينتها وقرينها في آن واحد).

أما في المثال الثاني فلا يترك عامر ذاته ويذوب في

امرأة، بل يستغلها حتى يكمّل ذاته من خلالها. فهو يشعر بجزءٍ منه ناقص، مكبوت فيتزوج به في الخارج.

ج) المثال الثالث

تقول هناء: «أحب سمير كثيرًا، في حضوره أحس بالقوة والحماية الأبوية. إن المرأة في حاجة إلى رجل قوي يحميها. سنتزوج، إن شاء الله عما قريب». هنا يكمن الخطر في أن هناء لا تحب سمير، بل تحب أباها فيه. ما دام سمير يشبه أباها فهي تحبه، ولكن ما إن يبتعد عن هذه الصورة الأبوية ليصبح أضعف مثلًا حتى تحس بخيبة أمل، فتبتعد بدورها عنه. ومن الممكن أن تعاتبه بعد ذلك بعدوانية قائلة: «أنت ضعيف، لست برجل، أين أنت من أبي، انتهى حبي لك».

عندها يشعر سمير أن هناء لم تحبه لشخصه، بل بدافع مصلحة شخصية. لقد أحبت فقط أن يحقّق لها بعض الصفات الأبوية التي تحتاج اليها والتي بدونها لن يكون له وجود في حياتها. مشكلتها أنها ظلّت ابنة أبيها، ولم تصل إلى شخصية مستقلة وأنوثة ناضجة. فهي تريد أن تُلبس ضعفها رداء قوة أبيها من خلال سمير، دون أن تسعى إلى التعرّف الى شريكها. فهي لا تريد معرفة سمير، بل أبيها في سمير حتى تستطيع أن تطلب منه حماية أبوية.

فبدون هذه الحماية تحس بذاتها ضعيفة يتيمة، مرذولة في هذه الدنيا، خشبة تتقاذفها أمواج بحر الحياة.

بعد فترة يتزوج سمير هناء، ويحقق صورة الرجل القوي الذي يمثّل أباها. وتظل هناء ابنته بصورة ما. وتنجب منه طفلة تسميها وفاء، وشيئًا فشيئًا تكتشف وفاء بشكلٍ واعٍ أو لاواعٍ أن أمها ابنة أبيها، أي اختها بشكلٍ ما. وتحب وفاء أباها، وفي مرحلة عقدة أوديب، تحبه كرجل وتريد أن تتزوجه وتأخذ مكان أمها. هنا، يجب على الأب أن يقول لابنته: «يا وفاء، إن هذا الزواج ليس ممكنًا، ألا ترين أنني متزوج بأمك، وأنه ليس ممكنًا أن تأخذي مكانها». ويجب على الأم أن تقول لابنتها: «يا وفاء، أنا أحب أباك كثيرًا، إنه زوجي، وليس زوجك، ولكن عندما تكبرين، تستطيعين أن تحبي رجلًا مثلما أحببت أباك، وتصيرين في المستقبل مثلي».

إذًا تُحَلّ عقدة أوديب عندما تكتشف الابنة أنها لا تستطيع أن تأخذ مكان أمها، لأن أباها وأمها متزوجان. وبدلًا من أن تعتبر أمها ضدها، منافسة لها، ترى فيها نموذج مستقبلها، ومثلها الأعلى، فتتماهى بها أكثر فأكثر حتى تصل أخيرًا إلى أنوثة ناضجة ومستقلة، قادرة على القيام بعلاقة مع رجل. ولكن ماذا يحل بوفاء بعد ذلك؟ إنها تشعر أن أمها هي ابنة أبيها أكثر ممّا هي زوجته، وأن المكان إلى جانب أبيها شاغر، فهو ليس متزوجًا في الحقيقة، لذا تستطيع أن تصير زوجته، وتصبح أمها ابنتها على نحوٍ ما.

ما موقف الأب من ابنته؟ إنه سعيد بشعور وفاء نحوه، يتعلق بها أكثر من تعلقه بزوجته التي ظلّت ابنته.

يهتم بها كثيرًا، ويكوّنها بشكلٍ لاواعٍ حسب الصورة المثالية التي يملكها عن المرأة والزوجة (قرينته). ومع مرور الزمن، تعكس وفاء قرينة أبيها، نظرًا إلى عدم إمكانية تماهيها بشخصية أمها، إذ إنها لا ترى فيها الأنوثة الجذّابة، فقد ظلّت أمها صغيرة، ضعيفة، وليس ممكنًا أن تكون مثلها. لذا فهي تتماهى بصورة أبيها عن المرأة، وتصبح سجينة قرينته دون أن تحقّق أنوثتها بشكلٍ طبيعي، لتبحث بعد ذلك عن زوج تشبه قرينته قرينة أبيها، حتى يتمكن هذا الزوج من أن يحب فيها قرينته، ولكنها بهذه الطريقة لا تكون محبوبة لشخصها، بل لما فيها من قرينة أبيها، فتدع الرجل يكمل نقصه فيها. وقد وجدنا هذا النوع من العلاقات في المثال الثاني.

نلاحظ أن وفاء تشبه إلى حدٍ ما أمها، فكلتاهما تبحث عن الأب في الزوج: هناء تبحث عن قوة أبيها في الرجل، ومن المحتمل أن تبحث عن قرينها المكبوت في الرجل، في حين تبحث وفاء عن قرينة أبيها في الرجل. في حياة كل منهما نوع من الذوبان: هناء ترى قرينها في الرجل، وتذوب فيه. أما وفاء فبعدما ذابت في قرينة أبيها، تترك زوجها يذوب فيها.

وهناك مشاكل أخرى في حياة الفتاة قد لا نصادفها عند وفاء، كأن تحب أن ترى في الرجل، من جهة، الأب الذي يعاملها كابنته فيحميها بقوته، ومن جهة أخرى الابن الذي تستطيع أن تهتم به. أي تشعر تجاه الشخص

نفسه أنها ابنة في حاجة إلى أبيها، وبأنها أمّ يحتاج إليها الرجل كابن.

فكيف نفسّر هذا التناقض: الرغبة في شخص قوي وضعيف في آنٍ واحد؟

إذا عدنا إلى أسس التربية، نجد ان الأهل والمجتمع لا يشجعون الفتاة على تطوير وتنمية إمكاناتها العاطفية والإنسانية. يطلبون منها أن تبقى طفلة على المستوى العاطفي، وأن تتجاوز عمرها على مستوى العقل والتصرفات، ويوجهونها قائلين: «كوني مهذبة، عاقلة، حافظي على رجاحة عقلك، ما لك ولتصرفات المراهقات الطائشات، دائمًا جاهلات، لا يفكرن إلّا في الحفلات. كوني رزينة وادرسي جيدًا، لتكوني أمًا صالحة لأولادك».

فتكون النتيجة أن تسكن هذه الابنة شخصيتان، واحدة صغيرة والأخرى راشدة. وإذا تزوجت فهي تريد من الرجل راشدًا للطفلة فيها، وطفلًا للراشدة فيها.

وكما يمكن للابنة أن تتزوج أبيها من خلال زوجها، يمكن للابن أن يتزوج أمّه من خلال زوجته. فالأم التي لا تحب زوجها، تحب أن تربط أولادها بها، خاصة البكر منهم. ترى فيه بديلًا عن زوجها، وتكوّنه بحسب قرينها، فيصبح هذا الابن عرضة لمشاكل مماثلة للتي رأيناها في حياة وفاء. فهو لن يكون رجلًا من خلال التماهي بأبيه، بل بصورة أمه عن الرجل (قرينها)، ومن الصعب عليه بلوغ رجولة حقيقية: فيبحث، بشكلٍ لاواعٍ عن

امرأة يشبه قرينها قرين أمّه، فترغب بالزواج به، ولكن في هذا الزواج، لن يجد زوجته، بل أمّه، ولن يجد نفسه رجلًا مستقلًا، بل يجد في ذاته قرين أمّه. لذا فهو لا يحب أن يبقى في منزله، إذ يحسّ أنه طفل مثل أطفاله، فيخرج على أمل التقاء المرأة، كامرأة أو كجسد حتى يحس برجولته، ولكنه في هذه الحالة، لن يلتقي قلب المرأة، وبالتالي لن يعيش رجولته الحقيقية.

د) المثال الرابع

تزوج مجد ريم، وهي معاقة جسديًا. هو يقول: «أغلب الناس يهربون من رؤية المعاق. أنا على العكس منهم، عندما ألتقي معاقًا، أحب أن أهتم به، أن أضحي من أجله، وأن أبقى معه. لقد ألتقيت ريم، فأحببتها وتزوجتها».

لماذا يهرب أغلب الناس من المعاق؟

من المحتمل أن ضعف وإعاقة المعاق يذكرانهم بضعفهم وإعاقتهم، هذه الإعاقة التي يرفضونها ويكبتونها فلا يستطيعون رؤيتها في حياة المعاق.

أمّا مجد فهو لا يهرب من المعاق، بل يهتم به. أتراه قبل ضعفه وأحب المعاق؟

من خلال حديث مع مجد، تبيّن أنه لا يحب أن يكون ضعيفًا، ولا يقبل أن يحتاج الى أحد، فيعمل ما بوسعه كي يظهر بمظهر القوي. لا يطلب مساعدة من

أحد، خوفًا من أن يُرفض طلبه، أو يعامله كإنسان محتاج ضعيف، فيشفق عليه شفقة فوقية. لكنه بالمقابل يكون السبّاق إلى مساعدة المحتاج.

إن كان مجد يهرب من ضعف كبير يحس به في نفسه، فلماذا يتواصل مع ضعيف؟ أما من خطر في أن يذكّره الضعيف بضعفه المرفوض، فيتحرّر من أسره؟

لنرى ماذا فعل مجد بشكل لاواعٍ حتى يستطيع أن يحب الضعيف:

لقد أسقط مجد، من جهة، ضعفه على المعاق، وتماهى من جهة أخرى بشخصية قوية أبوية، فصار بعد ذلك يهتم كقوي بالضعيف فيه من خلال المعاق، معالجًا جروحه على حساب هذا المعاق.

ويكتشف مجد شيئًا فشيئًا هذه الحقيقة: إنه لا يحب ريم، بل يحب صورة ضعفه فيها، وليست هي من يحتاج اليه، بل هو المحتاج إليها، ليهتم بنفسه الضعيفة من خلالها. إنه يدع بشكل لاواعٍ ريم الضعيفة تحتاج إلى قوّته التي تعوضه عن ضعفه.

يحتجّ أناس كثيرون أمام مثل هذا التحليل قائلين: هذا التحليل يُرجع تصرفاتنا إلى مصلحة شخصية، دون أية مشاعر حب؟ أفلا يمكن أن يتحقّق بعض الحب بين ريم ومجد؟». ويقول آخرون: «فهمنا أن هناك خطأ، فكيف نستطيع اكتشافه في العلاقة بين ريم ومجد؟». لا نستطيع القول إنه لا يوجد حب مطلقًا، ولكن مجد اكتشف أنه

يرى ضعفه من خلال ريم أكثر ممّا يرى ريم، فكيف تم ذلك؟ لقد أدرك أنه، أثناء علاقته بريم، لم يحدث أي تطور. لقد كانت أشبه بعلاقة روتينية جامدة. فلم يقم مثلًا بأي جهد ليعلّم ريم كيف تمشي بشكل أفضل وتصبح أكثر استقلالًا، خوفًا من أن تتحرّر منه، فلا تسنح له الفرصة لإظهار قوته. لذلك أحبّ أن يمتلكها كضعيفة في علاقة قهرية، غير حرّة، شبه ميتة، فيها كل واحد سجين دون أي إمكانية للنمو.

إننا هنا، كما في الأمثلة السابقة، إزاء أشخاص يتوهمون أنهم يحبون بعضهم بعضًا ولكنهم في الحقيقة يذوبون من خلال وضع أو دور معيّن دون أن يتركوا المجال لأنفسهم أو للآخرين ليعيشوا بحرية واستقلال، إزاء أشخاص يهتمون بضعفهم من خلال شخص ضعيف، في حين يهرب آخرون منه هربًا من ضعفهم. ولكن لماذا لا يبادر بعض الناس إلى مساعدة الإنسان الضعيف، فيهتمون بضعفهم من خلاله؟ أليس الاهتمام بضعفهم من خلال شخص آخر أفضل من كبت هذا الاهتمام؟

لا يملك الجميع القدرة على التماهي بدور المساعد، فهذا الدور يتطلب إلى حدٍ ما وجود قرينة قوية. فمثلًا لا يمكن رجل أعمال ناجح أن يرى معاقًا، لأنه ابتعد، من خلال عمله، عن ضعفه وعن ضعف الآخر، إضافة إلى أنه لا يملك إمكانية القيام بدور المساعد، فيبقى ضعفه مكبوتًا، في حين يتماهى بدور هام في المجتمع يعوّض فيه عن الضعف بالقوة.

إن كلًا من المساعد، ورجل الأعمال، يحتاج إلى قوة كي لا يحس بضعفه. واحدهما يجدها من خلال مساعدته للآخر، وثانيهما من خلال قوة أعماله العظيمة. ويجد كل منهما صعوبة في قبول التقدم في العمر، أو المرض، إذ إنه لا يود أن يكون محتاجًا إلى الآخرين، الأمر الذي يشعره بضعفه وبأنه موضع احتقار وشفقة فوقية. لم يختبر في حياته الحب المجاني الذي يؤكّد له أنه يمكن أن يكون ضعيفًا ومحبوبًا في آن واحد.

الفصل الثاني

العلاقة بين الأهل والأولاد

سنتكلم أولًا عن العلاقة بين الأم وأولادها، وعن تضحية الأم، ثم ننتقل إلى العلاقة بين الأب وأولاده.

أ – الأم المضحّية

لنتعرف سوية إلى حياة أم، وربة منزل:

تستيقظ في الصباح الباكر وتحضّر طعام الفطور لزوجها وأولادها، وتهتم بلباسهم وحاجياتهم المدرسية، ليغادر كل واحد بعدها المنزل، فتبدأ الأم بتنظيفه، وترتيب الأسرّة، وتحضير طعام الغداء. ويعود كل فرد من أفراد الأُسرة على حدة، فتؤمّن الأم لكلٍّ طعامه، وتغسل الأطباق، وفي فترة ما بعد الظهر تدرّس الأولاد، أو تحيك وتصلح الثياب، وإذا ما بقي لها وقت فارغ، فهي تزور وتستقبل الجيران والأصحاب، لتعود بعدها إلى أمورها المنزلية: تحضير طعام العشاء، وإرسال الأولاد إلى النوم،

لتأخذ لنفسها قسطًا غير كافٍ من الراحة أثناء مشاهدة التلفاز. هوذا حال ربة المنزل، فكم بالحري حال المرأة العاملة!

حوار أجري مع إحدى الأمهات:

– أما لنفسك حق عليك؟ أحياتك بأكملها من أجل زوجك وأولادك؟

– نعم، أنا كليًّا لعائلتي، أضحّي بحياتي من أجلهم.

– وإذا توفر لك وقت فارغ، فماذا تفعلين؟

– لا أستطيع البقاء دون عمل، أفتّش فورًا عن شيء يشغلني، وعندما أكون وحدي دون عمل، ينتابني القلق وأقول لنفسي: ربما قد حصل مكروه لزوجي أو لأحد أولادي. فأفضّل أن أعمل طوال النهار على أن أتحمّل هذا التفكير المزعج.

– ألا تفكرين بعمل يُدخل السرور إلى قلبك، دون أن تعيشي فقط من خلال زوجك وأولادك؟

– لا، فأنا لا أحس بوجودي، ولا أبحث عن سعادتي الخاصة، فسعادتي تكمن في رؤية زوجي وأولادي سعداء.

– ألا تفكرين بالذهاب في رحلة إلى البحر أو إلى الجبل مع زوجك لتمضية العطلة وتغيير الشكل والجوهر؟

– لا، ماذا سنفعل بدون الأولاد؟ أخاف أن نملّ سويّة، إضافة إلى أنني سأبقى أسيرة التفكير بأولادي ولن أستمتع بالعطلة، إذ سينصبّ تفكيري أثناء العطلة على

أولادي، وأتساءل: هل هم في صحة جيدة؟ هل يهتم بهم أحد؟ كم أخشى أن يصيبهم مكروه.

– ألا تعتقدين بأن أولادك سيكونون سعداء إذا قضوا أسبوعًا وحدهم في المنزل، وأنهم سينالون قسطًا من الحرية؟ ألا تخشين أن يختنقوا في جو الاهتمام الزائد هذا؟

– لا أدري ولكن ما أنا متثبّتة منه هو أنني لن أكون سعيدة في غيابهم؟

– وهل تجدين الوقت لتتفرغي لأولادك وتصغي إليهم؟

– في الحقيقة، أحب أن اصغي إلى أولادي، ولكنني لا أجد الوقت الكافي، وضجة الحياة لا تسمح لي بالإصغاء حقًا.

– هل تفكرين في حياتك مع زوجك بعد أن يكبر الأولاد ويغادروا المنزل؟

– أفضّل عدم التفكير في هذا الموضوع، ولكنني أعتقد بأن أولادي سيأتون بأولادهم لأهتم بهم، أريد دومًا ما يشغلني، وإلّا أفقد عقلي.

– وإذا لم يقدّر زوجك والأولاد كل هذه الجهود والتضحيات، فهل تمنّين عليهم بما فعلت وتقولين لهم: «لقد أفنيت عمري وأنا أضحّي من أجلكم، أهكذا تتصرفون؟ يا للعيب، إنكم لا تستحقون تعبي. ولكن،

لا بأس إن متّ، ستندمون وستقولون: يا ليتنا لم نتعبها بهذا القدر. عندها تعرفون قيمتي».

– عندما أحس بأنه ما من أحد يقدّرني، أتفوه بمثل هذه العبارات.

فماذا نستنتج من مثل هذه المقابلة؟

أن هذه الأم لا تملك أية حياة شخصية وهي لا تعطي أي حق لذاتها ولأنوثتها. تمحو ذاتها، وتموت في سبيل الآخرين، في حين تعيش فراغًا نفسيًا، موتًا، قلقًا، خوفًا وحزنًا وسواسيًا. فكيف ستعيش مع ذاتها ومن خلالها، وتعطي من هذه الذات للآخرين؟ وكيف ستُسعد ذاتها ما دامت هذه الذات غير موجودة؟ وماذا يستطيع الإنسان أن يفعل في وضع كهذا؟

من الممكن أن يهرب من موته الداخلي ويعيش من خلال الآخر. فكما هربت نجاة في المثال الأول من موتها وذابت في صورتها المثالية من خلال أيهم، يمكن أن تذوب الأم في أمومتها وفي أولادها وتعيش كليًا من خلالهم. حياتها هي حياتهم؛ وكما أرادت نجاة أن تذوب في شخص مثالي كي تعيش من خلاله وتحس بقيمتها، تطلب الأم أحيانًا كثيرة من أولادها تحقيق المثالية والتميز، وتقديرها على الدوام، إذ إنها تستمد قيمتها من قيمتهم وتقييمهم إياها. على هؤلاء الأولاد والأحفاد أن يظلوا بجوارها، فهي لا تستطيع التخلّي عنهم فتمتلكهم، وتأسرهم بتضحية مستمرة حتى لا تفقدهم وتفقد ذاتها

معهم، فتقول لهم: «أيعقل يا أولادي أن تتركوا من ضحّت بأغلى ما عندها من أجلكم؟ ولكن إن مرضت يومًا، ستقولون: «يا ليتنا لم نعذبها بهذا القدر». وإن لم يحقق لها أولادها ما تريد، تستعمل كل الأساليب الممكنة لامتلاكهم، سواء بمزيد من التضحية والإرضاء، ام بالمرض وأخيرًا بالمِنّة.

كيف تصرّفت هذه الأم؟

لقد قدّمت نفسها كمضحّية من الدرجة الأولى، ثم أشعرت الآخرين بسوئهم، لا لأنهم لم يقدّروا تضحياتها فقط، بل لأنهم علاوة على ذلك كانوا مصدر عذاب لها. لقد أظهرت لهم من خلال نور تضحياتها ظلام ظلمهم، ونكرانهم الجميل. جعلتهم مسؤولين عن أي مرض قد يصيبها في المستقبل.

إن تفوّه الأم بمثل هذه العبارات أمام ابنها، كي يبقى بجانبها، يترك أثرًا سلبيًا على نفسية الابن. فمن الممكن، أمام هذه العبارات، أن ينظر الابن إلى نفسه على أنه مذنب، وغير صالح، وأحيانًا مجرم، فتكون النتيجة أن يكره نفسه.

يحتجّ الكثيرون على هذا الكلام عن الأم متذرعين بقولهم: «الأم مقدسة، إنها أغلى ما في الوجود، الجنة تحت أقدام الأمهات».

أو «ألا تدري كم تضحي الأم من أجلنا وتتعذب بصمت وصبر؟ ما من أحد يقدر أن يحب مثلها، والآن

تحاول بكلماتك أن تقلّل من قيمتها، وأن تطيح بها من عرش الحب والتضحية، مقنعًا إيانا بأنها في حاجة إلى أولادها لتعيش من خلالهم. أتريد إقناعنا بأن حبها مصلحة؟».

سنجيب عن هذه الدفاعات بما يلي:

ليست جميع الأمهات متشابهات: فهناك أمهات يعشن بشكل كلي تقريبًا من خلال أولادهن، وهناك أمهات حقّقن درجة من الاستقلال تجاه أولادهن، ولكننا نلاحظ بشكل عام أن الأم لا تعيش حياتها الشخصية، وهذا ما يؤدّي إلى بعض النتائج السلبية في التربية. إلا أننا لا نعرف على وجه الدقة متى تعيش الأم حياتها الشخصية ومتى لا تعيشها. ولا نستطيع القول إن الأم التي تخلّت عن حياتها الشخصية لا تحب أولادها. فبالرغم من كل ما يرتكب الإنسان بحق نفسه، من الصعب أن يجف نبع الحب في أعماقه.

نعتقد بأن المرأة، عندما تصير أمًا، تصبح القدوة لمجانية الحب، وكأن الأمومة تحمل دومًا في طياتها الحب. ليس ممكنًا للمرأة التي لم تتلقَّ حبًا في حياتها، ووجدت صعوبة في حب الآخرين، أن تشعر بالحب فجأةً لمجرد أنها صارت أمًا. فالأمومة لا تَخلق الحب، بل تفترضه، والأمومة في حد ذاتها تؤدّي إلى نوع من التملّك.

تقول إحدى الأمهات: «طفلي مِلْكي لأنه جاء مني».

فبما أن الجنين ينمو في رحم الأم، فهي تعتبره جزءًا

من ذاتها. فتتملكه وهنا يكمن الخطر في أن الطفل، الذي كان حيًا في رحم أمه، قد أصبح بعد ولادته شبه ميت بين ذراعيها الامتلاكيتين. وتكون النتيجة أمراضًا نفسية خطيرة.

أحيانًا ما نسمع عبارة: «الحب تضحية». فماذا تعني كلمة تضحية؟

مثال: هناك إعلان عن سهرة رائعة لمطرب مشهور، أمضى والدا نبيلة ساعات استعدادًا لهذه السهرة. وبينما كانا يتأهبان بسرور لمغادرة المنزل، لاحظت الأم أن نبيلة تعاني من حمى مفاجئة.

فقالت لزوجها: اذهب أنت ورفّه عن نفسك، أما أنا فسأبقى إلى جانب نبيلة.

فأجابها زوجها: لماذا عليك أنت أن تضحّي دومًا، اذهبي أنت إلى السهرة، فأنت جديرة بها، بعد يوم من العمل الشاق.

الزوجة: لا يا حبيبي، أنا لا أحس بأنني أضحّي بنفسي من أجل ابنتي، أنا أحب البقاء إلى جانبها دون أي شعور بالتضحية لأني أحبها.

لقد قالت الزوجة: «لا وجود للتضحية، لأن هناك حُبًا». وكأنها أرادت ان تقول: إذا كان هناك حب، فما من تضحية. وإذا كان هناك تضحية، فذلك يعني غياب الحب. ويمكن القول أيضًا إن هناك تضحية بسبب غياب الحب.

ترى أم نبيلة أن الأم تضحّي عندما تبقى في المنزل رغمًا عن نفسها، كواجب تؤدّيه ضد نفسها وعلى حسابها. ومن المؤكّد أنها ستمنّ على ابنتها بما فعلت قائلة: «أرأيت مقدار حبي؟ لقد بقيت في المنزل من أجلك، كم أحببت الذهاب إلى تلك السهرة، ولكنك كنت مريضة، فماذا كان بمقدوري أن أفعل؟ التضحية واجب علينا».

وتشعر الابنة بدورها أن أمها ليست سعيدة، بل متألمة بسببها، فتحس هي أيضًا بالألم وتشعر بالذنب لأجلها، وربما تحس برغبة في أن تقول لها: «إن كان بقاؤك عندي رغمًا عنك، فأنا لا أودّ ذلك أبدًا، بل سأكون أكثر سرورًا لو ذهبت إلى الحفل، ورفّهت عن نفسك». فهل كان ممكنًا للأم أن تبقى في المنزل بدون أي شعور بالتضحية؟

لو كان حب الأم لابنتها أقوى من حبها للسهرة، لفضّلت البقاء ولتخلّت طواعية عن هذه السهرة، دون أي إحساس بالحرمان. ولكان شعور الأم والابنة هو الفرح عوضًا عن الخيبة، لأن التخلي عن شيء ممتع من أجل شخص تحبه كان تخليًا حرًا بدافعٍ من الحب والفرح.

ولكن عندما تفضّل الأم السهرة، فسيكون بقاؤها إحساسًا بالواجب وستحس بالتضحية. وستحس ابنتها هي أيضًا بأنها كانت عبئًا على أمها.

من خلال ما سبق، يتوضح الفرق بين الحب والتضحية:

ففي الحب تخلٍ حر عن الفرح، في حين تكون التضحية تخليًا مجبرًا ومعذّبًا بدافع الواجب، ولن يسكن الفرح والحب والحرية، ولن تكون التضحية هدية للآخر، إذ في عمق التضحية يكمن الألم، والقهر، ونكران الذات.

أحب أن أوضح أخيرًا نقطة هامة في الحب ونكران الذات:

إن الأم، عندما تضحي رغمًا عن نفسها بهذه السهرة، فهي تنكر جزءًا من ذاتها، تنكر تفضيلها لهذه السهرة، وتجبر نفسها على البقاء في المنزل. أما الأم التي تفضل البقاء من أجل ابنتها بدافع الحب، فهي لا تنكر الجزء الآخر من ذاتها الذي يحب الذهاب إلى السهرة، إذ إن هذا الجزء سينسجم بشكل طبيعي، وبدون إنكار لجزء ذاتها الذي يحب البقاء مع الابنة، وتصبح الذاتان واحدًا، بدافع الحب، بدلًا من أن تكونا متضاربتَين أو تُنكر واحدة في سبيل الثانية، فتعيشان متحابتين. عندها لن تحس الابنة أن أمها تهتم بها على حساب ذاتها المنكرة.

وسنرى لاحقًا ما للتضحية وانكار الذات من خلفيات نفسية.

ب – موقف الأولاد من الأم المضحّية

نتطرّق هنا إلى أربعة مواقف من الأم المضحّية:

١ – الولد راضٍ عن أمّه : فهي تحت تصرفه ، تدلله ، وتواسيه عندما يكون حزينًا ، وتنفذ له كل طلباته دون أن تطالبه بشيء . يعود إلى المنزل فيجد كل شيء جاهزًا بانتظاره : طعامه على المائدة ، وسريره مرتّب ، ويطلب القهوة فتحضر فورًا ، ولا تعترض أمه على صداقاته أيًا كان نوعها ، وتستضيف أصدقاءه وتعيد ترتيب المنزل بعد ذهابهم ، وطبعًا على أخواته أن يحذون حذو أمه .

٢ – الولد راضٍ عن موقف أمه المضحّي ، ولكنه ، في الوقت نفسه ، يدرك أنها لا تحقق شيئًا من أجل ذاتها ، فهي ليست سعيدة ، لا بل تتعذب أحيانًا . وهو أيضًا غير سعيد لذلك ، يحس بالذنب ، إذ يعتبر نفسه مسؤولًا أولًا عن عذابها ، فيخاطبها قائلًا :

– لماذا لا تهتمين بنفسك من الآن فصاعدًا ؟ «لماذا لا تقومين برحلة مع نساء الحي ، تسرّين بها عن نفسك ؟ ليس ضروريًا أن تبقي معي» .

– ألا يا بني ، أتريدني أن أفكر بنفسي بعد كل هذه السنوات ؟ يا للعيب ، فلو فعلت ذلك لقال الناس عني أنني عاشقة ، أعيش مراهقتي التي لم أعشها من قبل وها أنا أهتم بنفسي ، بعد أن أفنيت عمري في سبيل أولادي . سيتهمونني بالأنانية . لا يا بني ، أخاف من التفكير بذلك ؟

– ممّ تخافين يا أمي ؟

– أخاف ، كما قلت لك ، أن يتهمني الناس

بالأنانية . ألا ترى الآن كيف يثني عليّ الجميع ويرقّ قلبهم لحالي عندما أكون متعبة ، ويقولون : «إنها حقًا أم مثالية تضحي في سبيل أولادها ، ليس لها مثيل ، إنها مثال الحب» ؟

– أتخافين من ذلك فقط ؟

– لا يا بني ، أخاف أيضًا أن أترككم ولو لقليل ، فتتركوني طول العمر ، فأعيش وحيدة مع نفسي .

– وماذا يعني ذلك ؟

– أكره العزلة ، وأكره أن أحس نفسي مهملة . عندما أكون وحدي ، أحس في نفسي فراغًا وحزنًا وألمًا .

يتضح هنا كم هو صعب على الأم أن تتخلى عن أسلوب التضحية لأنه يخدم مصالحها النفسية والاجتماعية .

٣ – الولد غير راضٍ عن تضحية الأم ، يحس بالاختناق من هذه الامتلاكية ، ولا يتنفس بحرية ولا يعيش حياته المستقلة ، ويتمنى أن تصغي أمه إليه وتهتم بأعماقه بدلًا من أن تعمل طوال النهار ، كما يتمنى أن يجد فيها حياة حتى يشاركها فيها ، ويتلقى منها حياة بدلًا من اهتمام مادي أو عاطفي بحت ، ويتمنى في أعماقه لو يتمرد على هذا الأسلوب ، ولكن تعترضه مخاوف شتى :

أولًا : الخوف من نفسه المكبوتة على نفسه الكابتة : «ماذا يحصل في ما لو تحرّرت هذه العدائية المكبوتة ؟

قد لا أستطيع السيطرة عليها، كيف أتحول فجأة من ابن عاقل مهذب إلى ابن عنيف»؟

ثانيًا: الخوف من ردّ فعله على أمه:

«ربما أجرحها إن حدثتها بصراحة، وقد يحصل لها مكروه».

ثالثًا: الخوف من ردّ فعل أمه عليه:

«قد يحزنها ذلك، وتتوقف عن حبي، أو تمنّ علي بأفضالها».

رابعًا: الخوف من رد فعل الآخرين:

«ماذا سيقول عني الأصدقاء والأهل؟ من المؤكّد أنهم سيقولون: لا تسئ إلى أمك، بل احترمها، ونفّذ لها كل طلباتها. أيرتاح واحدنا وأمه غير راضية عنه؟ مستحيل! لن يحترمك الناس إذا تمردت على أمك ولم تحترمها».

هذه المخاوف تمنعه من مواجهة أمه. فيبقى في نظر الناس الابن العاقل المهذب، في حين أن نار التمرد تتأجّج في قلبه.

٤ - الولد غير راضٍ عن أسلوب أمه، وهو يعبّر عن ذلك بصراحة تامة، ويواجه أمه، ويُفهِمها أنه لا يستطيع البقاء معها إن أصرّت على موقفها المضحّي والخانق. إنه يريد التحرر من قبضتها الامتلاكية والعاطفية حتى يستطيع أن يولد من ذاته ويعيش حياة مستقلة.

ويكتشف في الوقت نفسه أن أباه أفضل ممّا صوّرته أمه. فيقول لها: «أنت لم تعطني أيّ فكرة إيجابية عن

أبي، وكأنك المضحّي المثالي الوحيد، وكأنه دومًا الأناني الذي يبحث عن ملذاته وعن الجنس. ولكنني أعتقد بأنك ظلمت أبي، إنه ليس كما تظنين، فقد اكتشفت في قلبه الكثير من الأحاسيس الأبوية والرقيقة. وإذا كنت لا تحبين الجنس، فذلك لا يعني أن أبي كان على خطأ حين أراد التعبير عن عواطفه من خلال الجنس. أنت تضحّين بحياتك الجنسية، ومن الممكن أن يكون هدفك هو ايجاد المتعة من خلال التضحية. ولكن ذلك ليس سويًا، فأبي أكثر سواء منك، إنه يريد أن يعيش حياته كما هي، وقد تبيّن لي أنه يحبّك أكثر ممّا تحبينه، ولكنك لا تفسحين له المجال لذلك. أما فيما يخصني، فسأعيش معه أكثر فأكثر، سأعمل معه، وأتعرّف إليه».

ما هو رد فعل الأم في مثل هذه الحالة؟

إذا كانت لا تستطيع أن تعيش إلّا من خلال هذا الابن، فسيستولي عليها خوف كبير، وستفعل المستحيل كي لا يبتعد عنها. أمّا إن كانت تستطيع التخلي عنه وتحبه في الوقت نفسه، فعليها أن تضع نفسها موضع تساؤل، وتعيد النظر في علاقتها مع نفسها، مع أولادها ومع زوجها، فتساعد ابنها على الانطلاق مستقلًا في حياته.

ج - لماذا تضحّي الأم؟

نرى الكثير من الفتيات يعشن قبل الزواج حياة

سعيدة ، مستقلة ، ينطلقن بفرح ولهن دور هام وخلاّق في المجتمع . فماذا يحصل بعد الزواج ؟

تنطفئ هذه الشمعة المضيئة شيئًا فشيئًا ، أو فجأةً ، لتصبح الفتاة زوجة زوج ، وأم أولاده فقط . تفرغ من الداخل ، وتخضع للحياة العائلية والمنزلية .

فلماذا لا يبقى للأم كيانها المستقل قبل كل شيء ؟ لماذا لا تبقى إمرأة تعيش حياتها بكل معنى الكلمة ؟

إن كلًا من الدين والمجتمع يقوم بدور هام في توجيه الفتاة منذ البداية نحو الأمومة دون أن تعيش مراهقتها ، إذ كيف تعيش هذه المراهقة في الوقت الذي عليها أن تكون مثال الطهارة ، حتى لا تضع شرف العائلة عامة ، وشرف رجل العائلة خاصة موضع تساؤل ؟

تقول إحدى الفتيات لأبيها : «لقد أدركت يا أبي أن عليّ أن أتصرّف بتحفظ مع الرجال حتى لا يتكلموا بالسوء عني ، عنك وعن العائلة . فأنا لا أحب أن يقولوا إنك بلا كرامة ، ولكن ذلك لا يعني أنني تمثال الطهارة . أريد أن أعيش حياتي ، وأتمنى ألّا تهتم فقط بطهارتي ، بل أيضًا بشخصي ، بمشاكلي وبتساؤلاتي حول معنى حياتي . فأنا أحس أحيانًا أن همّك الأكبر منصبّ على تزويجي بأسرع وقت ممكن ، حتى يصان شرف العائلة وتلقي بمسؤوليتك عني على عاتق من سيتزوجني . عندها تقول : الآن ارتحنا ، حافظنا على كرامتنا ، وعلى رجولتنا . وكأن الفتاة ، إذا ما تزوجت وصارت أمًا ، فهي تريح الجميع .

وتسمع عندها عبارة (راحت عليك) وكأنه ليس لها الحق في متابعة حياتها كما مضى .

أو يقولون : «هل ستبقين مراهقة لا تفكرين إلّا بنفسك ، عليك منذ اليوم التضحية من أجل بيتك ، اقتلي المرأة فيك ، وعيشي حياة الأم» .

أي أن المرأة ، كفتاة ، عليها أن تذوب في أمومتها ، أن تضحي بحياتها الشخصية وأنوثتها كيلا يتكلم الناس عنها بالسوء ، فتحافظ على سمعة العائلة ، وكرامة رجلها .

نخلص إلى القول إن المجتمع يجبر المرأة على التضحية بنفسها ، ولكن من الممكن أن تفتش المرأة عن التضحية بدافع ذاتي ونتيجة عوامل نفسية .

فما هي العوامل التي تدفع الإنسان إلى التضحية ؟

البحث عن التقدير انطلاقًا من شعور بالنقص .

البحث عن العقاب انطلاقًا من شعور بالذنب .

إذا القينا نظرة على أسلوب تربية الفتاة ، لاحظنا أنها تُعامَل على أنها ناقصة ، وتُفهَم أن الصبي أفضل منها ، فهو يساوي فتاتين على الأقل . فتدرك ، منذ البداية ، أن الصبي يملك ما لا تملكه ، وأن هذا الشيء (العضو الذكري) مهم جدًا .

تقول احدى الفتيات : «عندما كنت صغيرة أحسست أن هناك شيئًا ينقصني كأنني كنت مشوهة» .

تقول أخرى بعد أن سمعت بنبأ ولادة أختها : «أف ، فتاة أخرى ، يا ليتها كانت صبيًا» .

وتمرض هذه الأخت بعد ولادتها بمرض خطير، علاجه غير ممكن إلّا في أمريكا. فيقرر والدها السفر بها إلى الخارج. فتقول الجدة:

«اتركوها تموت، وماذا يعني ذلك، إنها بنت على كل حال، لماذا نبذّر أموالنا من أجل بنت».

وإذا لم ينجب الأهل صبيًا فهم يستمرون في إنجاب الأولاد، ويصير الصواب إنجاب صبي. وإذا جاءت بنت في ظرف كهذا، يقولون: «لقد جاءت بالغلط»، أو لا يقولون شيئًا: «جاءت بنت... صمت...» ولشدة خيبة أملهم، لا يدرون بماذا يتفوهون.

تقول احدى الأمهات: «تفوق قيمة ابني الوحيد قيمة بناتي العشر وزوجي، ابني فوق رأسي».

بشكلٍ عام يقولون أهلًا وسهلًا للابنة الكبرى، وللابنة الصغرى، فالكبرى، تحل محل الأم في المنزل، وأما فيما يتعلّق بالصغرى فيقولون: «نأمل أن تعيش معنا، وترعانا في شيخوختنا». يستمرون في تسميتها «الصغيرة» كي لا تكبر وتغادر المنزل. ولكن كلًا من الابنتين، الكبرى والصغرى، لا تشعر بقيمتها الشخصية، إذ عليها أن تذوب في دورها: الكبرى أو الصغرى. أما الابنة الوسطى، فلا تحس بسهولة قيمتها لأنها كانت على العموم غير منتظرة، كان أهلها ينتظرون صبيًا، فجاءت بدلًا منه.

نلاحظ أحيانًا أن الأم تلحّ أكثر من الأب في إنجاب

الذكور، فمن خلالهم تعوّض عن نقصها كامرأة. وإذا كانت لا تحب نفسها كامرأة، فكيف ستحب ابنتها؟ لا بل هناك من النساء مَن لا تحب الرجل، فترغب في إنجاب الفتيات فقط وتزرع في نفوسهن كراهية نحو الرجل وبالتالي نحو أنوثتهن. وعندما تكبر الفتاة، لا تحس بقيمتها كأنثى أمام الرجل، فتحاول أن تعوّض عن هذا النقص قدر المستطاع إما من خلال نجاحها على أحد الأصعدة، لتحس بقيمتها في المجتمع، ظنًّا منها أن الناس سيحبونها بعد ذلك لجمالها أو لنجاحها الدراسي. أو من خلال التكيّف مع مطالب الناس، حتى تحس بالقبول. وهنا يأتي دور التضحية، فهي تريد أن تحصل على قيمتها الشخصية من خلال التضحية، كونها لا تستطيع أن تستمد هذه القيمة من ذاتها. وعندما تصير أمًا فهي تضحي من أجل زوجها وأولادها حتى تجد مكانتها في هذا العالم.

تكلمنا عن الشعور بالنقص الذي يدفع المرأة إلى التضحية، والآن سننتقل إلى الحديث عن الشعور بالذنب:

إن الشعور بالذنب جلي في حياة الفتاة لأن المجتمع يُشعرها بالذنب إذا حادت عن المطلوب منها أو حاولت التحرر من مثال الطهارة الذي دُفنت فيه. يقولون لها: «أنت خاطئة، أنت سيئة» ويعاقبونها بقسوة لأقل خطأ، ذلك أنها تضع بخطيئتها شرف العائلة موضوع تساؤل. لقد وضعوا على ظهرها حجرًا ثقيلًا، إنه حجر شرف العائلة، وإذا ما أرادت حمله، عليها أن تمشي مطأطأة

رأسها، عيناها نحو الأرض، وإذا ما راودتها نفسها برفضه، جوبهت بالرفض والتنكر لها.

تحمّل الفتاة نفسها أحيانًا الشعور بالذنب إذا ما أحست أنها لا تستطيع أن تكون على مستوى مطالب الآخرين. على كل حال، من المستحيل تحقيق كل رغبات المجتمع، فهي لا تستطيع أن تكون عكس ما هي عليه، لا تستطيع أن تدفن ذاتها في قالب معين؛ فتشعر بالذنب وبالخوف الشديد من فقدان الحب، إذا لم تحقق المطلوب منها فتفعل ما بوسعها، وتضحي بذاتها أكثر فأكثر كي لا يرفضها الآخرون.

وأحيانًا أخرى، تُحمّل الفتاة نفسها ذنبًا نتيجة عدوانيتها تجاه الأشخاص الذين لم يولوا الأهمية لشخصها، وحاولوا تقييدها بأطر معينة.

ومن الممكن أن تحاول التعبير عن عدوانيتها تجاه الأهل والمجتمع، الذين خنقوا شخصيتها، ولكنها تسمع على الفور مَن يقول لها: «كيف تتجرأين على إظهار العداء لأهلك ومواجهتهم، فقد كانوا صالحين معك، ولم يعملوا إلّا ما فيه مصلحتك الخاصة». وبعد كلام من هذا النوع، تشعر الفتاة العدوانية بالذنب وتُجبَر على كبت العدوانية والشعور بالذنب في اللاوعي. لكن، ماذا يحصل بعد ذلك؟

إن هذه الفتاة لا تتحمل الشعور بالذنب، فتوجّه بشكلٍ لاواعٍ عدوانيتها المكبوتة نحو ذاتها فتعذّب نفسها

وتعاقبها بشدة، كي يخف شعورها بالذنب. مثلها كمثل المجرم الذي لا يرتاح إلّا بعد أن يُعاقَب ويُسجَن.

إن أسلوب التضحية هو أحد الأساليب التي يستعملها الإنسان ليعاقب نفسه: يكفّر عن ذنوبه، ويحصل في الوقت ذاته على تقدير الناس له. هو الذي لم يشعر يومًا بأنه صالح، يحس بذلك من خلال التضحية، فيرضى عن نفسه، ويرضى الناس عنه، ويحقق قمة مبتغاه.

وكم من الصعب عندئذٍ التخلّي عن هذا الأسلوب (مذنب وبدون أي شعور بقيمة شخصية) من أجل بداية جديدة.

د – الأب

إذا كانت الأم التي تُعتبر مثال الحب كذلك، فكم بالحري يكون الأب؟

نعتقد عامة بأن الأم تحب أولادها أكثر ممّا يحبهم أبوهم، ولكن هل مثل هذا الاعتقاد صحيح؟

من خلال ما سبق، يتبين لنا أن أسلوب الأم امتلاكي أحيانًا. فهل يسعى الأب إلى التملك مثلها، أكثر، أم أقل منها؟

إن الأب لا يمتلك أولاده مثلما تفعل الأم، لأنه أولًا لا يحس بأنهم جزء من كيانه، ولا يقول أبدًا إن ابنه ملكه لأنه عاش في أحشائه تسعة أشهر. إنه يعتبره ملكًا لزوجته أكثر منه له، ولأنه، ثانيًا، لا يعيش كليًا من خلال

أولاده، إذ له حياته الاجتماعية، ومركزه، وعمله خارج المنزل. صحيح أنه اجتماعيًا في حاجة إلى أولاده، خاصةً البكر منهم، إذ إنه يُنسب إليه، ولكنه شخصيًا يعيش بدون أولاده بسهولة أكثر ممّا تفعله زوجته، وهو أقل حاجة إلى الارتباط بهم. ولذلك فهو عادة لا يمنّ عليهم بأفضاله، ولا يحمّلهم ذنبًا، ولا نسمعه يقول لهم: «ستدركون بعد موتي كم ضحيت لأجلكم».

وهو لا يعتقد بأن أولاده سيبكونه ساعة موته قائلين: «لو أحسنّا معاملته لما مات بهذه السرعة»، بل هو غالبًا ما يعتقد بأنه، إذا ما مات، استراح هو ومن حوله، حتى إنه لا يجرؤ على التفكير في أنه، برحيله، سيترك فراغًا كبيرًا لأهل بيته. فما السبب يا ترى؟

غالبًا ما يُعامَل الأب في المنزل على أنه اضافي، مكانه خارج المنزل، الذي هو منزل الأم وأولادها. وفي الوقت نفسه، تقع على عاتقه وحده تأمين المتطلبات المادية. وعندما يعمل ما بوسعه، لا يسمع إلّا عبارة: «لم تفعل سوى واجبك». دون أن يلقى - إلّا ما ندر - تقديرًا لشخصه. فيشعر بنفسه ضيفًا، ثقيل الظل.

يروي أحد الآباء مشاعره فيقول:

«عدت البارحة ليلًا إلى المنزل بعد نهار من العمل الشاق، وقلت لنفسي: آمل أن أجد زوجتي وأولادي في المنزل، ليحتفلوا بعودتي بدفء وحرارة. ولكن ما إن دخلت حتى راح الأولاد يصرخون سائلين: «ماذا أحضرت لنا اليوم يا أبي»، فأجبتهم: «الحق أنه لم يكن

لديَّ الوقت لشراء الحاجات، ولكن كيف كان يومكم في المدرسة؟» فأجابوني: «من فضلك، يا بابا، الزم الصمت قليلًا. فهناك فيلم رائع تنقله الأقمار الصناعية (الديش)» فأجبتهم: «الآن صار الفيلم على (الديش) أهم من البابا»؟ فأجابوني: «من فضلك يا بابا، لا وقت لنا الآن للنقاش».

عندها أحسست أنني غير مرغوب في هذا البيت، ثقيل الظل، وأنا كثيرًا ما أحس بذلك، وكرد فعل لإثبات وجودي، أتدخل في كل شاردة وواردة، ولا أترك المنزل يسلم من شرّي. فطبعًا لا أرضى بأن يكون الحق عليّ، إذ ماذا سيبقى لي عندها سوى تأمين المال، والويل لي إن لم أفعل».

ويخاف الأب من أن يصبح غير مرغوب فيه على الإطلاق، إذا بلغ سن التقاعد، فنرى في أحلام بعض الرجال: عائلاتهم تطردهم من المنزل وكأنها تقول لهم: «لقد عملتم بجد، شكرًا جزيلًا على كل شيء، واليوم وقد انتهى دوركم، لم يعد لكم قيمة، لم نعد في حاجة اليكم، مع السلامة».

وفي كثير من الأحيان يحس الرجل بالراحة في منزل والديه أكثر ممّا يحسّ به في بيته الزوجي، وكأن الأول هو بيته الحقيقي.

أما شعور الأم فمختلف إجمالًا عن شعور الأب، فهي لا تحس بنفسها عبئًا على أولادها، بل أولادها عبء عليها، وهي لا تقول: «من الأفضل لكم أن أموت حتى

ترتاحوا» ، بل : «كم ستتألمون ساعة أموت ، ستندمون أشد الندم لأنكم كنتم سبب مرضي ، واليوم وقد مت ، ستفكرون فيّ كل لحظة» .

والأم التي لم تحظ باهتمام أولادها لها ولم تحس بقيمتها من خلالهم ، ستحصل عليها بعد موتها ، وتصبح محور اهتمام الجميع لما كانت عليه ، ظنًا منها أن أولادها سيأسفون لموتها أكثر من أسفهم لموت أبيهم» .

ونلاحظ أحيانًا أن الأب يحب أولاده بشكل حرّ أكثر من الأم ، ولكن يصعب عليه التعبير عن مشاعره ، إذ إن تربيته تأمره بكبت شعوره حفاظًا على رجولته . ولكن إذا تحرّر هذا الشعور من قبضة الكبت ، يخرج أحيانًا بقوة أكبر من قوة تعبير الأم ، والمثال على ذلك يوم زفاف الابنة : نفاجأ بدموع حارة في عيني الأب ، وقد ينعكس الوضع يوم زفاف الابن لنرى هذه الدموع في عيني الأم .

قد يظن بعضهم أن كلامًا كهذا يرمي إلى إبعاد الأم عن عرش القداسة ، ليحل الأب مكانها . فلنبحث عن النفعية في مواقف الأب من أولاده .

أولًا : ما موقف الأب من ابنه البكر :

يقيّم المجتمع الأب إلى حدٍّ ما من خلال ابنه البكر . فإذا كان الأب ناجحًا ، يفترض من ابنه أن يكمل نجاح أبيه ، وإذا كان الأب غير ناجح ، وجب على الابن تحقيق نجاح باهر ، كي يذوب فيه إخفاق الأب .

إذا عدنا إلى المثال الأول ، وجدنا أن الابنة التي لم

تنجح تذوب في الشاب الذي يحقق لها صورتها المثالية عن نفسها ، بعد أن أخفقت في تحقيق هذه الصورة . وكما أرادت الاحتفاظ ، بشكل متملك ، بهذا الشاب ، فهناك دومًا خطر في أن يمتلك الأب صورته المثالية عن نفسه من خلال ابنه البكر ، فلا يترك له مجالًا للتطور الحر . وإذا أخفق الابن ، فلا يتحمل الأب إخفاقه ، وإن نجح نجاحًا باهرًا ، فهو يحسده أحيانًا على هذا النجاح ، وكلما كان شعور الأب أن ابنه جزء منه أقوى ، خف الحسد . ولكنه غالبًا ما ينظر إليه كمنافس ، محاولًا التقليل من قيمته وإهانته .

فغالبًا لا يجوز للابن أن يشعر بتفوّق على أبيه ، ولا يتحمل الأب هو أيضًا أن يرى ابنه أبًا مثله ، فيُنظر إليه باستمرار على أنه ابن ، لكنه أمام الناس يحسه جزءًا من ذاته ، فيفتخر بنجاحه ، ويخجل من إخفاقه .

فالبكر يعيش وضعًا نفسيًا صعبًا ، إذ عليه أن يحقق صورة أبيه وصورة أمه عنه في آن واحد . وهاتان الصورتان قد تتضادان أحيانًا . نسمع شابًا يقول :

«تحب أمي أن أكون مهذبًا ، عاقلًا ، خجولًا ، بما أنها تكره الجنس ، فقد جعلتني أكرهه وأكره جسمي ، وأن أشعر أن مجرد التفكير في ذلك هو خطأ فادح ، في حين يحب أبي الجنس ويريدني مثله فحلًا ، قويًا ، ناجحًا بعلاقاتي الاجتماعية وحياتي العملية ، وأن أدبّر أموري . ليس مطلوبًا مني أن أكون مهذبًا أو لطيفًا . أمي وأبي لا يتفقان ، كل واحد منهما يريد جذبي نحوه . صرت ساحة

معركة عليها تتصارع كل من صورة أبي وصورة أمي عني، وأنا تائه بين الاثنتين، خاسر بلا هوية».

وبما أننا نطلب من الابن أن يعكس قرين الأم أو الأب، أو الاثنين معًا، تكون النتيجة أن قرينه يصبح مستوردًا، مستعمرًا، لا يستطيع أن يسكنه. والابن البكر مهم، لا لتحقيق النجاح على الأرض فقط، بل لتأمين استمرار حياة الوالدين بعد موتهما.

يقول أحد الآباء: «اسمي حسان، واسم ابني ناجي، وأنا في المجتمع مهم كأبو ناجي أكثر منه كحسان. استمد قيمتي من ابني البكر، لا سيمَّا أنه يتابع حياتي بعد موتي. بدون ناجي انتهي بموتي».

أبو ناجي يعيش حاضره ومستقبله، من خلال ناجي وأبنائه الآخرين. لا يولي الأهمية الكبرى لقيمته الشخصية، ولا يفتش عن الأبدي في قلب حياته الحاضرة وتاريخه، بل في متابعة حياته الأرضية بعد موته من خلال حياة ابنه. مفهومه عن الأبدية مفهوم مادي، ألا وهو متابعة الحياة على الأرض من خلال شخص آخر، دون أن يربط هذه الأبدية بالبعد الروحي لعمق حياته وتاريخه الشخصي. إنه يخاف أن يموت ابنه فلا يتابع ذكراه بعد موته، فيموت هو أيضًا نهائيًا. وهذا الخوف مرده إلى عدم إيمانه بما لحياته من قيمة ابدية، في حد ذاتها، على الأرض، وبأن حياته تبلغ أبديتها المطلقة من خلال الموت. الموت بالنسبة إليه قبور، لا عبور، فهو يريد تحقيق أبدية مادية من خلال أولاده لأنه لا يؤمن بأبدية روحية لنفسه بعد موتها.

يطلب المجتمع من الأب أن يعيش من خلال نجاح ابنه البكر، فيصعب عليه أن يحبه بنجاحه وبإخفاقه.

فماذا يطلب المجتمع منه فيما يتعلق بابنته؟

ثانيًا: موقف الأب من ابنته:

يقول المجتمع للأب: «قبل أن تهتم بابنتك، بنفسيتها وبمشاكلها، وحاول الحفاظ على عفافها وطهارتها. فبقدر ما تبقى طاهرة، تحافظ على رجولتك. اهتم من خلالها برجولتك وكرامتك أكثر من اهتمامك بشخصها».

ونشهد أحيانًا صراعًا كبيرًا في قلب الرجل بين حبه الأبوي لابنته من جهة، ومطالب المجتمع من جهة أخرى. فإذا تصرفت ابنته بشكل خاطئ، وجب عليه أن يحكم عليها، وأن يبتعد عنها على حساب حبه الأبوي المكبوت في قلبه. ولا يتحمل قلبه هذا الضغط الهائل أحيانًا فيعيش تحت وطأة المرض، ونراه يتعرض لأزمات أكثر من ازمات قلب المرأة.

ولا يكون المجتمع دومًا هو السبب في أن الرجل لا يترك المجال لابنته لتزدهر بحرية، فهو أحيانًا يقيّدها انطلاقًا من مصالحه وحاجاته النفسية: فإذا لم يتفق مثلًا مع زوجته، يحب أن يرى ابنته البكر وهي تحقق صورة المرأة التي أحبها لنفسه. فيكوّن هذه الابنة بحسب هذه الصورة (القرينة). ويقوم الجنس أحيانًا بدور مباشر أو غير مباشر في هذه العلاقة.

خلاصة القول: يزيد المجتمع صعوبات المرأة والرجل

في حبّهما لأولادهما، لأنه لا يعطي القيمة الشخصية لشخصهما في حد ذاته، بل يطلب منهما أن يعيشا هذه القيمة من خلال أولادهما. فنراهما مجبرين على استغلال الأولاد في سبيل الحصول على الكرامة والقيمة الشخصية.

ملحق بالقسم الأول

يتبين لنا من خلال القسم الأول أن الحب المزيف مبني على التشابه، أي أننا نحب شخصًا لأنه يشبهنا في جانب من جوانب شخصيتنا. فإذا أحس أحدهم بنقص أو بإخفاق كبير، أحب أن يشبه الآخر صورته المثالية عن نفسه حتى يذوب فيها، كما في المثال الأول.

وإذا لم يقبل أحدهم جزءًا من نفسه وكبته، فهو يحب أن يشبه الآخر هذا الجزء المكبوت، حتى يكمل نفسه فيه، كما في المثال الثاني.

وإذا لم يقبل أحدهم اختفاء شخص مهم في حياته، فهو يحب أن يصادف شخصًا يشبه الشخص المختفي، حتى يتابع العلاقة المفقودة معه، كما في المثال الثالث. وإذا لم يقبل أحدهم ضعفه، فهو يحب أن يصادف شخصًا يشبه شخصه الضعيف المكبوت حتى يجد نفسه فيه، كما في المثال الرابع.

وأمّا إذا أخفى أحدهم إخفاقه بنجاحه، فهو يحب أن يصادف شخصًا ناجحًا، حتى يتابع نجاحه من خلاله.

من خلال الأمثلة السابقة، نلاحظ أننا نحب الآخر

لأنه يشبهنا كما نحن أو يشبه صورتنا المثالية عن أنفسنا، أي أننا نحبه كمرآة لذاتنا أو لأحلامنا، وعليه ألا يكون مختلفًا عنا أو عن أحلامنا، لأننا عندئذٍ لا نستطيع ولا نريد أن نذوب فيه، فنحن عمومًا نحب أن نذوب فيما يعجبنا.

من الممكن أن نتوهم في بداية العلاقة أن الآخر يشبهنا أو يشبه أحلامنا، ولكن من خلال الحياة المشتركة معه، نكتشف أنه لا يمكن الآخر أن يشبهنا وأننا لا نستطيع أن نحب أنفسنا فيه، فالآخر باختلافه يعيدنا إلى ذواتنا الناقصة، والنتيجة أننا نبتعد عن الشخص الذي لا يريد أن يشبهنا ونكرهه أحيانًا، ونكره أحيانًا أخرى ذواتنا لأننا أصبحنا من جديد وجهًا لوجه أمام ذواتنا الناقصة.

ولكن إذا أردنا دومًا أن نرى في الآخر وجه الشبه بنا، فنحن لن نراه كما هو وكمختلف عنا بخصوصيته، لنبحث عندها - بدلًا من البحث عن أنفسنا في الآخر - عن الآخر في الآخر (البحث عن آخريته).

والإنسان الذي رضي عن نفسه كما هي، وأحسها نبع ماء حي، منه يشرب، لا يحتاج للبحث عن شبيه له، كما أن الإنسان الذي سكن بحرية داخلية في فيضه وفي فقره قادر على رؤية الآخر برؤية موضوعية، وعلى البحث عنه كآخر مختلف عنه.

هنا نصل إلى الأسئلة الصعبة التي سنحاول الإجابة عليها في القسم الثاني:

كيف يكتشف الإنسان فيضه؟ كيف يسكن فيه؟ كيف ينطلق منه نحو الآخر؟ كيف يغني الآخر، بدلًا من تركه يغنيه؟ كيف ينتقل الإنسان من حاجته إلى الآخر انطلاقًا من نقصه، إلى رغبته في (آخرية) الآخر، انطلاقًا من نبعه الفياض؟

إذا أراد الإنسان أن يحب الآخر، فيجب ألا يسافر إليه أولًا ليحبه، بل أن يسافر إلى ذاته، ليؤمن شروط الحب، إذ إنه ينطلق أحيانًا من نقصه في علاقته مع الآخرين ويستغلهم. هنا عليه أن يعي هذه الحقيقة وأن يسأل نفسه: ما مصدر هذا النقص؟ كيف أستطيع قبوله وتجاوزه؟ أين فيضي؟ وأين نقصي؟

لا بد من السفر إلى ذواتنا حتى نبحث عن كنزنا، ونقبل بواقعنا كما هو. عندئذٍ لن نكون في حاجة لاستغلال الآخر لحماية واقعنا، لتكميله أو لتجميله.

القسم الثاني

المسيرة إلى الذات

يرغب الإنسان في السفر إلى ذاته، حتى يجد الكنز المدفون، ويفرح فيه، ويعيش منه، لا من الكنوز الاصطناعية التي تمنحه إياها الحياة، ولكن مشكلته تكمن في اعتقاده بأن هذا الكنز ليس في الداخل، بل في الخارج، فيسافر إلى الخارج كي يجده.

هناك مثل يحكي قصة رجل كان يبحث عن الكنز، فترك زوجته وأولاده وراح يبحث عنه في كل بلدان العالم، لكنه لم يجده، فعاد في النهاية إلى منزله، خالي الوفاض، خائب الأمل. وفي احدى الليالي، وبينما هو جالس أمام نار الموقد، رأى شيئًا يلتمع تحت الحطب، فرفعه، فوجد الكنز الذي انتظره منذ زمن طويل. يريد المثل أن يقول لنا إن الكنز الحقيقي لا تجده إلّا في بيتك، في قلب بيتك حيث يوجد الموقد، والدفء.

بشكل عام، الكنز مدفون، والحصول عليه يتم أحيانًا مصادفة، في حين يحتاج أحيانًا أخرى إلى مشقات جمة، كما يجري في الحكايات الشعبية والدينية، حيث يتطلب

الوصول إليه صبرًا وسفرًا طويلًا حتى ينتصر البطل على التنين، ويصل إلى غايته. وكما ورد في إنجيل متى حيث أمضى المجوس سنتين على الطريق يواجهون الصعوبات بحثًا عن كنز الطفل.

فلنتحدث عن هذه المسيرة بالذات:

أولًا: وعي وجود هذه المسيرة وأهمّيّتها.

ثانيًا: شروطها.

وأخيرًا: المسيرة في حد ذاتها.

وعي وجود هذه المسيرة وأهميتها

هناك أناس لا يعون وجود حياة داخلية، بل يعتبرون أن الحياة الاجتماعية التي يعيشونها هي الحياة. وبما أنهم غارقون في حياتهم اليومية، فهم لا يرون حياة أخرى. فالأم التي تغرق في التضحية وتعيش منها لا يمكنها أن تضع نفسها موضع تساؤل لترى ما هو أعمق من ذلك، إذاً إنها إن تخلت عن صنم تضحياتها، فلن يتبقى لها شيء.

والإنسان أحيانًا يحوّل النسبي إلى مطلق، يذوب فيه حتى يحس بنفسه مطلقًا دون أن يتساءل عن إمكانية وجود ما هو أهم من مطلقه، إذ إن الأرض ستتزعزع تحت أقدامه، وسيستولي عليه الخوف من موت صنمه.

تقول الأم بشكلٍ لاواعٍ: «إذا لم أضح، فسأحس بموتي. عندها من الأفضل أن أموت».

يقنع الناس، الذين يتمتعون بخيرات الدنيا ويسعدون بها، أنفسهم، بشكلٍ واعٍ أو لاواعٍ، أن الحياة التي يعيشونها هي الحياة الحقيقيّة، دون أن تراودهم فكرة

التخلي عن الظواهر، للبحث عن جوهر الحياة، حتى إنهم لا يميزون بين ما هو ظاهري، وما هو داخلي. فبالنسبة إليهم ليس هناك داخلي، حتى يكون هناك ظاهري. بعضهم يعي تفاهة وسطحية الحياة التي يحياها، إما لوجود شخص أوضح له انعدام العمق والحقيقة في حياته، أو لوجود المرض والموت كمؤشرين على نسبية الأمور الدنيوية.

أمام هذا الوعي، يقول بعضهم: «من المؤكد أن هناك خطأً في حياتي، ولكنني أفضّل أن أتابعها كما هي بدلًا من البحث عن الحقيقة، كي أتغير. فمالي ولهذه المشاكل؟ الأفضل أن أبقى مرتاح البال، فأنا، إن بدأت هذه المسيرة، لا أعرف أين سأصل، وربما صار حالي أسوأ مما أنا عليه الآن، وربما توقف الناس عن حبي، فأفقد بذلك أصدقائي. لا، الهرب من الذات أرحم من الدخول فيها. أشكر الله، على النشاطات التي بها أتمكن من الهرب من ذاتي: علاقتي مع الآخرين، وسهراتي، وأعمالي، ومركزي، وأحلامي، ونشاطي الديني».

بينما يبدأ البعض الآخر السفر إلى ذواتهم، بعد أن وعوا أهمية ذلك، ولكنهم يخافون فيما بعد، ويعودون إلى نقطة البداية.

يقول أحدهم: «بدأت أواجه نفسي، ووضعت نفسي أمام مرآتها، فاستولى عليّ الخوف، ولا أدري السبب، ربما يكون المجهول. فأنا لا أعرف نفسي حق المعرفة، وهذا مخيف، وصرت أسأل نفسي: ماذا سأكتشف، ربما

فراغًا، ولذلك كنت، عندما أتعرف إلى فتاة، ما إن تبدأ علاقتي بها بالتوطد حتى أتركها، خوفًا من أن تكتشف فراغي الداخلي. كنت أفضل تركها، قبل أن تتركني».

يقول آخر: «جلست مع نفسي، فوجدتها حزينة، وأنا لا أحب أن أعيش حزينًا، ولذلك تركت نفسي مرة أخرى».

هناك أُناس يتخطون هذا الخوف من ذواتهم الفارغة الحزينة، ويستعدون لمتابعة السفر إليها، فما هي شروط المسيرة؟

الفصل الثاني

شروط المسيرة

إذا أراد أحدنا السفر إلى ذاته ، عليه أن يؤمن بأن هذه المسيرة تستحق العناء. فهو سيجد في النهاية في أعماق أعماقه الكنز الذي سيعوّضه عن هذا العناء. هذا الإيمان يولّد في نفسه عندما يرى نورًا في أفق ذاته ، ويكتشف في نفسه قوة خلاقة تسعى للخلق.

إذ إن رؤية النور هذه تولّد في نفسه إيمانًا بأهمية السفر وبهدفه. وعليه أن يعلم أن سفينته لن تصل بسهولة إلى هذه الآفاق البعيدة المنيرة. فهناك بحر واسع يفصل بينه وبين هدفه ، وأمواج البحر قد تزيد من صعوبات الطريق ، وبين حين وآخر سيحس بأنه تائه وسط هذه الأمواج ، دون رؤية واضحة. فعليه أن يجعل من عينيه بوصلة ، ليبقى دومًا على درب نور الحقيقة ، الذي يدعوه دومًا إلى الاقتراب منه. وما أهمّ أن يرافقه شخص أو عدة أشخاص ليرشدوه إلى الطريق وليساعدوه في تخطي الصعاب.

أ) الإيمان بالكنز الخلاق في قلب الإنسان: ماذا يحب الإنسان أن يجد في نفسه؟

يحب العثور في داخله على ما هو جميل وما لأجله يُحَب، ليحب نفسه فيه. فيدفعه هذا الغنى إلى الانفتاح على الآخرين وحبهم. يحب العثور على الكنز الذي يغني الآخرين، وعلى القوة الداخلية التي تسعى من تلقاء نفسها؛ وبنمو ديناميكي، إلى حقيقة الحب. البعض منا لا يؤمن بوجود هذا الكنز الخلاق في ذاته، وبهذه القوة الديناميكية، إذ إنه منذ نعومة أظفاره، لم يشعر الآخرون بهذا الكنز، فكيف يستطيع الطفل رؤية كنزه، إذا لم يره الآخرون؟

يقول أحدهم: «لم ير أهلي يومًا جمالي الداخلي، ولم يلتفتوا إلى كنزي. لقد عاشوا بدون كنزٍ ذاتي وأحبوا أن أقدّم لهم كنوزًا لذواتهم. كان عليَّ دومًا أن أكون مثاليًا، حتى يحبوا أنفسهم من خلالي. كانوا دائمًا يقولون: عليك أن تكون كنزنا أمام الناس، عليك أن تكون أحسن من الجميع. وعندما وصلت إلى الأحسن في نظرهم، قالوا: هناك أحسن من الأحسن، نشكر الله على أنك نلت علامة ٢٠/٢٠، الآن عليك أن تنال ٢١/ ٢٠.

وعلى كل حال، إن كنت الأول في الصف، فلا يعني ذلك أنك الأول في كل المجالات، فجارك يعزف موسيقى أفضل منك، وابن عمك يتقن الرقص أحسن منك، ما زال أمامك طريق طويل ...

وكان مستحيلًا أن أحقق هذا (الأحسن) الذي طلبوه، كي يكلّلوا بالنجاح الكامل. لم يقولوا لي مرة: أنت حسن كما أنت، أنت كنز في حد ذاتك. كانوا إما أن يقولوا لي: أنت لست ولدًا طيبًا، وإن لم تصبح كذلك فلست ابننا، أو أن يقولوا: عليك أن تكون أحسن مما أنت عليه. وذلك يعني أنني، علاوة على أنني لست صالحًا بحسب معاييرهم، فهم لن يقبلوا بي إذا استمررت على حالي. وعندما صرت شخصية بارزة في المجتمع، راحوا يغارون مني، ويقللون من شأني في البيت، بعيدًا عن أنظار العالم.

لم تكن مسيرتهم إلى كنزي، بل إلى كنزهم الخيالي الذين يحلمون به من خلالي. لم يدخل حبهم قلبي، فلم يصدر عن قلبي حرارة. قلبي بارد الآن، أمشي بلا هدف، لا أثق بنفسي، فأنا لا أحس بأية قيمة ذاتية، وقد فقدت في النهاية الأمل بالعثور على شخص يحبني كما أنا، رحت أسأل نفسي: «إذا لم يحبني أهلي فمن سيحبني إذًا».

نسمع كلامًا كهذا أحيانًا كثيرة، فندرك أن هذا الإنسان لا يستطيع أن يعيش حياته بشكل صحيح. لقد ألقى أهله على كاهله بأحلامهم كحقيبة ثقيلة، فخنقوا الحياة فيه وحطموها، دون أن يقدموا له الحياة. وهناك الكثيرون مثله، يسيرون على درب الحياة رغمًا عنهم، بلا رؤية، بلا إيمان وبلا أمل. فالحب لم يشعل يومًا ناره في قلوبهم ولم يُحي طاقات حبهم الدفينة، وربما بدوا كمن

يعيش في قلب الحياة، بينما هم في الحقيقة يعيشون في مقبرة.

إن كلام هذا الشخص يجعلنا نحس بواقع الحياة المؤلم، ولكننا نشكر الله على أننا لسنا جميعًا كذلك. فنحن نصادف أيضًا على درب الحياة أناسًا عاشوا مستنيرين بنور الحب، فراحوا يكتشفون كنزهم المنير، وهم عطشى للوصول إليه، يخرجون من المرفأ بتفاؤل ورؤية إيمانية ليخوضوا مغامرة البحر، فيقتربوا أكثر فأكثر من قلب النور في قلوبهم.

إن تأمل الطبيعة يجعلنا نحس بوجود كنز خلاق في قلب الحياة. فإذا تأمّل الإنسان بصمت داخلي وسط الطبيعة، فهو سيتساءل بدهشة كيف يمكن بذرة صغيرة أن تعطي شجرة شامخة، وكيف تنمو كل شجرة مختلفة عن الأخرى، كم هي عظيمة تلك القوة الخلاقة في هذه البذور، وكم هو خاص ما هو موجود في كل بذرة على حدة، حتى تستطيع كل شجرة القيام بمسيرة ديناميكية إلى خصوصيتها. إن هذه القوة وهذه الخصوصية التي تملكها الشجرة ليست عطية الإنسان، بل هي موجودة أصلًا فيها: إنها فطرية وليست مكتسبة.

والشجرة لا تقول للإنسان: «امنحني قوتي، وخصوصيتي»، بل: «امنحني أرضًا طيبة، ماءً، ضوءًا، حرارةً، اهتمامًا مستمرًا، وأخيرًا فضاءً حتى أنمو. لا تتدخل في نموي، دعني أحقق الحياة التي مُنِحتها فحسب، لا تفرض مسيرتك على مسيرتي، بل دعني

أتلقى مسيرتي من كياني، فما سأصير عليه موجود فيّ، ولكن نموه لا يتحقّق إلّا في ظل نور محبتك.

في إنجيل مرقس نجد هذا المثل:

«مثل ملكوت الله كمثل رجل يلقي البذر في الأرض، فسواء نام أو قام ليل نهار، فالبذر ينبت وينمي، وهو لا يدري كيف يكون ذلك، فالأرض من نفسها تُخرج العشب أولًا، ثم السنبل، ثم القمح الذي يملأ السنبل» (مرقس ٤/٢٦ - ٢٨).

إن البذر ينبت وينمو ولا يعرف الإنسان كيف يتم ذلك، فأصل الحياة وديناميكيتها يفوتانه. هو لا يخلق الحركة الخلاقة، إنها فطرية، طبيعية، تنبع من الأصل الذي لا يكون أصلًا إلّا بحركة ديناميكية. «فالأرض من حركتها تُخرج العشب».

على الإنسان أن يدع ما هو مكتوب في أصل البذرة لينمو ويصير عشبًا، سنبلًا وقمحًا، دون أن يكون له دور في خلق مراحل النمو، بل في تشجيع المسيرة الخاصة بكل مخلوق باحترامه المحب. لو تمكن الطفل ان يتكلّم، لقال لأهله ما قالته الشجرة للإنسان: «لا تعتقدوا أنني لا أملك كنزًا، وأن عليكم أن تزرعوا فيّ كنزًا على هواكم. الكنز موجود فيّ، فدعوني أنمو بحسب ما يمليه عليّ كنزي. لا تفرضوا أنفسكم عليّ، بل اصغوا إلى كياني، حتى تتعرّفوا إلى كنزي، وتدعوه ينمو بحسب ديناميكيته الخاصة. أيا أهلي: أما كان آدم نائمًا حين خلق الله حواء من ضلعه؟ فلماذا يا ترى؟ لأنه لا حق له أن يكون أصلًا لأصلها،

فأصلها يفوته، وأنتم أيضًا، عليكم أن تناموا عن أصلي ونموي. لا تخلقوني على صوركم، فتخنقوني، بل اسبروا بصبر الغنى الموجود فيّ، تعلّموا من حين لآخر ألّا تفعلوا شيئًا سوى أن تتأمّلوا في مسيرتي العفوية الطبيعية. كونوا شمسًا، حرارةً، أرضًا طيبة، ماءً، حبًا، إصغاءً، ظلًا لشجرتي دون أن تقولوا لها كيف عليها أن تكون أو مَن تكون».

فالطبيعة تقول للإنسان: ليس كل شيءٍ بيدك، لست أنت من تقوم بمسيرتك، هناك مسيرة فيك تحب أن تتحقّق، فتلقَّ بصمت مصغٍ هذه المسيرة من ذاتك حتى تسير بانسجام مع قوتك وكنزك.

هناك الكثير من الكنوز التي تستطيع أن تنالها في هذه الدنيا، ولكن إن لم تسمح لكنزك الداخلي بالنمو، فلن تُسعد، إذ إن كنوز الدنيا كلها لا تعوض عن كنزك الخاص. إنك قادر على تلقي الكنز ولكن لا بشكل كامل ونهائي، ولذلك تعيش وأنت تتلقى ذاتك من نبعها بمسيرة مستمرة، دون نهاية. وما تتلقاه يتحقق وحده دون عمل، كما ينبت كل من العشب والسنبل والقمح وحده.

فأفضل عمل هو أن نتلقى الكنز، وندعه يعمل فينا، فهناك من يعمل فينا أكثر مما نعمل نحن، وهذا هو العمل الحقيقي.

طوبى للإنسان الذي يعرف أن يتلقى الكنز من قلب الحياة.

ب) وعي صعوبة المسيرة

من الموت إلى الحياة

«الحق الحق أقول لكم، إن حبة الحنطة التي تقع على الأرض، إن لم تمت تبقى وحدها، وإذا ماتت، أخرجت ثمرًا كثيرًا» (يوحنا ١٢/٢٤).

فالحبة في حد ذاتها ثمر ينمو. ولكن إن بقيت على حالها فإن كنز الحياة الموجود فيها لا يتحرّر، بل يبقى سجين قشورها، فعليها، حتى لا تبقى وحدها أن تقع على الأرض، وتسلّم نفسها لحضنها، فتذيب الأرض قشورها وتحرر طاقاتها الحياتية، فلا يموت جوهرها، بل لباسها.

فكيف يتم التعاون بين الحبة والأرض لتنتصر الحياة على الموت؟

من جهة، على الحبة أن تقبل السكنى في حضن الأرض وتفسح المجال لها لتعمل فيها، وكلها ثقة بأن الأرض لا تفني الكنز فيها، بل تحرّره من سجنه. ومن جهة أخرى، لا تتصرف الأرض بعدوانية مع الحبة، ولا تريد كسرها بأسرع وقت ممكن حتى تستفيد من كنزها. فهي وديعة، وليست استهلاكية. هي تريد أن تذيب قشور الحبة فيها، فتحولها بعد ذلك إلى سماد يغذيها، فتشق الحبة طريقها من حضنها إلى الأعلى، وتنبت وتنمو وتثمر ثمرًا كثيرًا.

ومثلما يحدث في حياة الطبيعة، كذلك الأمر في حياة الإنسان.

فإذا أراد الإنسان أن يولد من كنزه الحقيقي، فلا بد أن يموت عن القشور. وكل إنسان هو سجين قشور قاسية وأقنعة بسبب تربية معينة، إذ ما من أحد يحب أولاده بمجانية كما يحبهم الله. لذلك لا يتطور الإنسان فقط بحسب صورة الخالق فيه (صورة الإنسان الأصلية)، بل بحسب صورة أهله ومحيطه ايضًا.

ويتطلع الأهل أحيانًا الى رؤية ما يخدم مصلحتهم في ولدهم، دون أن يفطنوا إلى اكتشاف ما هو موجود في هذا الولد فيساعدوا على نموه.

فيتماهى الولد عندها بمطالب أهله، خوفًا من فقدان حبهم. وفي ظل هذه الظروف، يعكس شيئًا فشيئًا صورة أهله عنه على حساب صورته الأصلية. فبدلًا من أن يصير إنسانًا يعيش انسجامًا مع نفسه، يصبح سجينًا في صورة غريبة عنه، ممزقًا بين أصله وأهله، بين الظاهر والداخل، بين الكابت والمكبوت، بين الفطري والمكتسب، وأخيرًا بين الشعور واللاشعور. فتجري معارك في ساحة نفسه بين متضادتين: يشعر وكأنه يرتدي ثوبًا ليس بثوبه، ويتدرع بدرعٍ قاسٍ يخفي وراءه نفسه، تمامًا كالحبة التي سجن جوهرها داخل قشور قاسية، فلا تستطيع أن تمنح هذا الجوهر، وتحس بأعماقها بالوحدة. فالناس لا يرون إلّا ظاهرها، هذا الظاهر الذي لا يعبّر أبدًا عن أعماقها. ولا يعي الإنسان دومًا وجود هذه القشور، فهو يضع قناعًا، وكله قناعة بأن هذا القناع هو وجهه الحقيقي، يعيش فعليًا في عزلة دون أن يدرك ذلك.

ومن يعي أن ذاته سجينة وتسعى إلى التحرّر يواجه عدة أسئلة.

ما طبيعة هذا السجن؟

أهو تعلّق بالأهل أم الأولاد؟ أهو نظرة سيئة إلى نفسه، أهي شهواته، مركزه، صورته المثالية عن نفسه أو عن الآخر، أهي علاقة مع قرينه أو مع قرينته، أو هو عدم قبول ضعفه؟

كيف السبيل إلى التحرّر من هذا السجن؟

كيف يموت عن أقنعته حتى يتجلى وجهه الحقيقي؟

يصعب على الإنسان ان يعي كافة الأسباب والأقنعة التي هو سجينها، وليس من السهل أبدًا أن يميّز بين الحقيقي والمزيف، إذ يتداخل الاثنان أحيانًا. ولنفترض أن الإنسان وعى وجود قناع ما، فكيف يتصرف حيال ذلك؟

إذا اكتشف الإنسان مثلًا أن قوته قناع لضعفه، أينزع هذا القناع، أيكسره؟ أيكون موقفه من القناع عدوانيًا أم وديعًا مستقبلًا كموقف الأرض من الحبة؟

يقول أحدهم: «لقد اكتشفت أن أحد أقنعتي هو مثاليتي، فوراءها أخفي عدوانيتي، شهواتي، غيرتي، شعوري بنقصي، ضعفي؛ وأريد أن أكسر هذا القناع وأقلع الشر من نفسي، كي أصبح صالحًا، دون أقنعة».

يريد هذا الإنسان أن يكسر القناع، فمن هو هذا الأنا العدواني الذي يأخذ زمام المبادرة في سبيل مزيد من الحقيقة والتخلّص من الأنا المثالي؟

لقد اكتشف هذا الإنسان أن مثاليته ليست مثالية لأنها تُخفي وراءها ما هو ليس بمثالي. لقد أدرك موقفه المخادع، وهو لا يتحمل هذا الخداع.

هذا الإنسان لم يتحمل الكذب، ألأن صوت الحق دعاه إلى التغير أم لأنه عرف أن موقفه لم يكن مثاليًا، ولم يتحمل ذلك، فأراد العودة مجدّدًا إلى مثاليته، ليشعر بأنه أفضل من الآخرين وليفخر بذلك؟

من الممكن لأحدنا أن يغضب على نفسه، بعد أن اكتشف أن كماله كان قناعًا، فهو يريد أن يعمل ما بوسعه ليصلح نفسه ويقتلع الشر، فيكون فعلًا الإنسان الكامل. ولكن الإنسان لا يستطيع التخلّص بشكل كلّي من شرّه، ولذلك فإن كماله الخارجي يبقى قناعًا للشر الذي لا يرغب في الاعتراف به فيكبته.

فبدلًا من أن يحاول قبول ما هو موجود في نفسه، منطلقًا بروح الرحمة من واقعه، يستمر في تغطية أناه الواقعي بأنا الكمال، فيعيش لنفسه، منشغلًا بها دون أن يعنيه الآخر كآخر، بل الآخر بقدر ما يمدح كماله. وكما احتقر نفسه بسبب نقصه، فهو يحتقر الآخر الناقص، مسقطًا شره اللاواعي والمكبوت عليه، فيرى شرّه في الآخر ويحكم عليه.

وهذا الإنسان لا يقول أبدًا: «من الممكن أن يذوب الشرّ فيّ شيئًا فشيئًا إذا ما ساعدني الناس من خلال حبهم لي». لا، إنه يريد اقتلاع الشرّ بيديه، وخوض معركته

ضد الشر وحده، يريد أن يكون محور عمله. لكن هذه العدوانية لا تصدر عن صوت الحق، بل عن عدم قبول ذاته الناقصة في الواقع. إذ يمكن لصوت الحق أن يكون أحيانًا عنيفًا نحو الإنسان، ولكنه لا يكون أبدًا عدوانيًا أو محتقرًا.

وفي مثل حبة الحنطة، نلاحظ أن الحبة لا تعمل شيئًا، والأرض لا تكسر، الأرض لا تتكلم لغة العمل العدواني، بل لغة الوداعة والرحمة.

هذا المثل يدعو الإنسان المثالي إلى تسليم نفسه لوداعة الأرض ورحمتها، بدلًا من أن يتصرّف بعدوانية محاولًا رفع القناع عن وجهه، ويقول له:

«لقد اكتشفت الخطأ في موقفك من نفسك ومن الناس، وهذا جيد، ولكن لا تبقى في بحثك عن الكمال وحيدًا، إذ ليس ممكنًا أن تصنع كمالك بيدك. اخرج من معركة نفسك، وادخل أرض الرحمة، أقم علاقة مع أناس طيبين يحبونك، ودع وداعتهم ورحمتهم ترحمانك، فترحم نفسك. ففي أرض علاقة محبة، تذوب قشور أقنعتك، فتتفجر قوة الحياة فيك. لا تهتم برفع الأقنعة عن وجهك، ليظهر وجهك الحقيقي. فما أن يتسلل نور الرحمة والوداعة إلى نفسك حتى يتبدّد ظلام الشر الداخلي، فتنار الأقنعة من الداخل، ويتجلى وجهك الحقيقي من خلالها. في هذه المسيرة، لا نموت مرة ونعيش طول العمر، بل نستمر في مسيرة الموت والحياة. وفي كل خطوة، نكتشف أكثر فأكثر ما علينا أن نموت فيه.

ويفقد بعضهم الصبر أثناء هذه المسيرة، فيقولون:

«نحن، يا أخي، على هذا الطريق، منذ زمن طويل، ولا نرى شيئًا واضحًا، فقل لنا ماذا نفعل حتى نصل ونجد الكنز»

كم هو صعب على الإنسان ان ينتظر بصبر، وان يستقبل الحاضر، دون معرفة المستقبل.

وكم هو صعب أن يدع الأمور تأخذ مجراها، فيتلقاها كما هي، ويبحث بروح التساؤل عن معناها، وينسجم بعمله مع ديناميكية الحياة، إذ إن عليه أن يموت مئة مرة حتى يقترب من كنزه ويعيش حرية الحب.

وكم هو صعب أن يموت الإنسان عن ذاته، هذه الذات التي يجب أن تكون دومًا كاملة، قوية، تحب أن تعرف كل شيء، تصنّف، تسيطر على مجرى الحياة وتحدده.

وكم يصعب الموت عن ذات متسرعة، لا تتلقى ديناميكية الزمن، بل تريد أن تكون محور الزمن ومبرمجه. فبدلًا من أن تمنح الأشياء الفرصة والوقت، تفرض ذاتها على الوقت وتخنقه.

ج) أهمية المرافق

فهل يستطيع الإنسان وحده ان يقوم بهذه المسيرة الصعبة، أم من الأفضل له ان يجد المرافق الذي اختبر تجربة العبور من الموت إلى الحياة والذي يمتاز بخبرة ومعرفة إنسانية حقيقية؟

إن دور المرافق هام جدًا، فهو يبين للمسافر أهمية السفر وهدفه، وهل بإمكانه القيام به وتأمين شروطه، ويساعده على تمييز صوت الحق حتى يتبعه، ويشجعه في المراحل الصعبة على المضي بصبر وإيمان، ويساعده عند مفترق الطرقات على اختيار الطريق الصحيح، وهو حاضر لكل مرحلة وشاهد بصمت ومصغ إلى كل الحوادث. إن حضور هذا المرافق الذي بدأ وما زال مستمرًا في هذه المسيرة يؤكد للمسافر أن الطريق غير مسدود.

د) أهمية العزلة، الصمت، الإصغاء

إذا أراد الإنسان التعرف إلى كنز ذاته، لا بد من العزلة، حتى يكتشف المناطق المجهولة منها.

فمن المهم أن يعرف الإنسان كيف يشرب القهوة مع ذاته، ويحادثها، ويتعرف إليها، ولكن هناك أشخاص يملّون بسرعة الحديث مع ذواتهم، ويبحثون عن أشخاص يشربون القهوة معهم ويتحدثون إليهم.

إذ على الإنسان، إذا أراد المغامرة في مناطقه المجهولة، ألا يبقى مع الناس دومًا، ولا يكفي أن يتركهم، ويدخل هذه المناطق ويمشي فيها، فمن الممكن أن يتنزه الإنسان في أجمل المناظر الطبيعية ولا يلحظ الجمال. فبدلًا من أن يتأمّل العالم الخارجي، يبقى سجين ذاته، وتفكيره، وشعوره، وبدلًا من أن يكون حاضرًا للطبيعة بانتباهه المحب، يشرد في عالم آخر بعيدًا عن العالم الذي يعيش فيه.

ففي إحدى المرات، وبينما كنت جالسًا على قمة جبل، أرغب في تأمّل الطبيعة الخلابة، رحت أنظر شيئًا فشيئًا إلى المنطقة بحثًا عن طريق مسير على الأقدام مع الشبيبة، وأخطط له، ثم عدت إلى ذاتي، فأدركت أنني لم أكن حاضرًا أبدًا لهذه الطبيعة، بل كنت أخطط دون أن استقبلها.

فتخليت عن التفكير والتخطيط وسلمت نفسي للصمت الذي كان يلفّني ليدخل في أعماقي. وبفضل هذا الصمت، خرجت مجددًا من نفسي، هذه المرة لا من أجل التخطيط، بل لتلقي الطبيعة بخصوصيتها: رحت أشمّ رائحتها وعبيرها، وأصغي إلى صمتها وصوتها، وأتأمّل جمالها. هذه المرة تركت الطبيعة تحدّثني بلغتها دون أن أفرض لغتي عليها، وتمتعت بكنزها. وبعد هذا اللقاء معها، رحت أتساءل بفرح كم سيكون رائعًا القيام بمسير في هذه المنطقة.

هذا المثل البسيط يبيّن لنا أهمية العزلة والصمت والإصغاء، إذا أردنا أن نفهم لغة الآخر، وضرورة الموت عن ضجة التفكير والتخطيط للوصول إلى هذا الصمت المصغي. وقد تكلمت مطولًا عن ذلك في كتابي «الإصغاء والحب».

أمّا فيما يختص بالمسيرة نحو الذات، فمن الضروري تحقيق العزلة والصمت المصغي حتى نترك ذواتنا تتكلم، محاولين الإصغاء لفهم هذه اللغة.

الفصل الثالث

المسيرة في حد ذاتها

تجلّي الكنز واستقباله:

أمام إنسان يهرب من ذاته إلى العالم الخارجي، دعونا نتساءل عن هذا الهروب.

لقد أحس هذا الإنسان في أعماقه حزنًا، وهو لا يود أن يكون حزينًا، ولا يرغب في الظهور بمظهر الحزين أمام الناس. إنه يرفض حزنه، ويكبت كل ما يزعجه، ويهرب إلى الخارج على أمل أن يكون الخارج أفضل من الداخل. فيختبر أن العالم الخارجي لا يمكنه أن يحقق له السعادة، وأن مواجهة النفس أفضل من الهرب منها. فيقرر البقاء مع ذاته حتى يصغي إلى لغتها. فماذا تقول له هذه اللغة؟ «أنا حزينة، لقد رفضتني، تخليت عني منذ زمن طويل وتركتني في عزلة مع مشاكلي».

في المرحلة الأولى يخرج الشعور بالحزن، وكم هو مهم هنا ألا يهرب الإنسان مجددًا من حزنه، بل ان يقبله ويعيش الشعور الذي بقي طويلًا مكبوتًا في نفسه، ويترك الحزن يتجسّد في دموعه، وكم هو جميل أن يشاركه

آخر، في مسح دموعه من أن يمسحها وحده، فيدخل في أرض علاقة محبة، يذوب فيها كل شيء حزين وقاسٍ ومرفوض ومكبوت.

ومن يعبّر عن حزنه، يستطيع أن يجعل مسافة بينه وبين هذا الحزن، فيرى حزنه أمامه، ويتحرّر إلى حد ما من قبضته عليه من الداخل. عندها يستطيع الدخول في المرحلة الثانية التي ليست مرحلة الشعور فقط، بل مرحلة العقل والتحليل أيضًا، ليتساءل أمام هذا الحزن: ما سبب حزنه وما مصدره.

بعضهم يتعرّف الى سبب حزنه، وبعضهم الآخر لا. إذا عدنا إلى المثال الثاني من القسم الأول، وجدنا أن عامر قد رأى في تمارا قرينته، فماذا حصل بعد ذلك؟

لقد اكتشفت تمارا أن عامر لم يكن يحبها كما هي، فتركته، وأحس عامر بأنه حزين ومظلوم ومرفوض، فاتخذ موقفًا عدوانيًا من تمارا، دون أن يعبّر عن هذه العدوانية، فتحولت هذه العدوانية شيئًا فشيئًا إلى حزن. ولكنه أيضًا لم يرغب في أن يعيش هذا الحزن، فهرب إلى تسليات الحياة الاجتماعية، مازحًا باستمرار. وعندما حان الوقت الذي أحب فيه مواجهة نفسه، اكتشف أن هناك حزنًا وراء مزاحه، وأن هناك عدوانية وراء حزنه، فترك العدوانية (المكبوتة تجاه تمارا) لتتحرّر هذه المرة. يقول: «لقد قدمت لها كل شيء، وقد فعلت بي ما فعلت. أدعو إلى الله الّا تتزوج أبدًا». وقد أجرينا هذا الحوار مع عامر:

- أكان الحق كله عليها؟

- طبعًا، كان حبي لها صافيًا، ولكنها لم تقدّره.

- أهي الظالمة إذًا وأنت المظلوم؟

- تمامًا، الآن فهمتني.

- ألم تسأل نفسك هل انت قد أحببتها فعلًا، وهل كانت غيرتك عليها ومراقبتك المستمرة لها حبًا؟ هل كنت قد أحببتها أو أحببت صورة طالما تمنيتها لنفسك ورغبت فيها؟

لقد قبل عامر متابعة المسيرة، واكتشف أنه رأى في تمارا قرينته، لا تمارا. لقد كان هو الظالم وليست هي.

ويسأل عامر:

- وماذا أفعل الآن؟

- لقد اكتشفت حزنًا وعدوانية مكبوتين، والآن اكتشفت أن قرينتك كانت مكبوتة أيضًا، فمن هي هذه القرينة؟

- ما وجدته في تمارا هو إصغاء، وفيض عاطفي، وحنان، وانتباه، وصبر واستقبال.

- ألم تجد ما لم يعجبك في تمارا؟

- في البداية لا، وبعد ذلك، لم تعد طيبة لأنها تخلّت عني.

- ألا تستطيع أن تعيش في نفسك الصفات التي أحببت أن تعيشها من خلال تمارا؟ لماذا كبتت هذه

الصفات الجميلة في حياتك؟ أيكبت الإنسان أشياء جميلة؟

– هكذا تعلمت، إذا أراد أحدنا أن يصبح رجلًا عليه أن يدفع الثمن.

– أمستعد الآن أن تدفع هذا الثمن؟

وكان عامر مستعدًا لمتابعة المسيرة، فتجرأ أن يعيش قرينته في مجتمعه الذي طلب منه كبتها: كف عن العمل المتواصل، وراح يستسلم أكثر فأكثر لعواطفه، ويستقبل ويصغي، ويهتم بالفن، فصار أكثر حرية تجاه المرأة، يراها كما هي فعلًا، لا كمرآة مثالية لقرينته، فوصل إلى بداية إمكانية حب.

أمّا في المثال الأول من القسم الأول فنرى نجاة وقد هربت كليًا من نفسها إلى أيهم. لقد عاشت في بداية حياتها تعاسة، وأحبت أن تعيش حرية سليمة، ولكنها مُنعت عن أمور كثيرة، وأُفهمت أنها ليست صالحة إذا ما عاشت حريتها، وما دامت قد سمعت أنها ليست صالحة، وأنها على خطأ، بدأت تصدّق العالم، واعتقدت أنها فعلًا كذلك، يستحيل أن تُحَب. وفي كل مرة كان يمدحها أحدهم ويقول لها: «أحبك»، كانت تقنع نفسها بأنه كاذب، فبرأيها هي، لا يمكن أن تُحَب، ومن المؤكد أنه يبغي شيئًا آخر منها، وربما كان تودّده بدافع مصلحة.

لقد فقدت نجاة الثقة بذاتها وبالآخر وتمنت الموت. عندها التقت أيهم الذي كان يجسّد من خلال انطلاقه

وتصرفاته الحرة ما أحبت أن تعيش ولم تستطع، فتماهت به كي تحس بنفسها مرة من خلاله.

ولكن خلال مسيرتها إلى ذاتها وصلت إلى الشعور بأنها لا تساوي شيئًا. وبعودتها إلى ماضيها، وجدت أن الجميع قد حكموا عليها، وأشعروها فعلًا أنها لا تساوي شيئًا، وهذا حوار أُجري معها:

– أحكم الناس جميعهم عليك، ألم يكن هناك أحد معك؟

– لا، لقد أحسست بعزلة رهيبة، بسبب حكمهم علي. كأنهم وضعوني وسط الحلقة، مثلما فعلوا مع المرأة الزانية في إنجيل يوحنا، وقالوا: «أنت سيئة، لا تستحقين الحياة».

– أما من أحد أشعرك بقيمتك؟

– لا.

– واليوم أتنظرين إلى نفسك، كما نظروا إليك في الماضي؟

– مع الأسف، نعم، فأنا أحتقر نفسي مثلما احتقرني الآخرون، ولكثرة ما قالوا أنني مخطئة وسيئة، صرت أحس بذلك رغمًا عني.

وتلا هذا الحوار صمت طويل، فواحدنا لا يستطيع أن يقول لها أن عليها ألا تحتقر نفسها، وأنها إنسانة طيبة فعلًا، وأن عليها أن تحب نفسها قليلًا، فهي لن تتوقف عن احتقارها لنفسها إذا ما قيل لها ذلك.

وباستعمال الكلمة : «عليك ألا» ، نجبر الشخص على فعل ما لا يستطيع فعله دون أن نترك له الوقت لينطلق بمسيرته من حيث هو موجود . فأحيانًا نجبر الشخص ألا يعيش نقصه ، لأن هذا النقص يذكرنا بنقصنا الذي لا نحب أن نعيشه .

خلال هذا الحوار ، تقول نجاة ولأول مرة أنها تحتقر نفسها ، وتعي هذا الواقع ، ومن الممكن أن هذا الوعي تحديدًا هو الذي يدفعها أن تتساءل : «أمن الضروري أن أكره نفسي ؟ أليس من الممكن أن أتغلب على هذا الوضع ، وكيف ؟» .

أمّا الشخص الذي يصغي إليها بصمت عميق فهو يدعوها إلى هذا الصمت حتى تصغي معه إلى ذاتها ، من خلال صمته يقول لها : «أنا أسهر معك ، لا أتركك ، بل أنتظر معك ، وأنت في ظلام الليل ، الفجر فيك . حضوري يعبّر عن إيماني بخروج كنزك المدفون من ظلام الليل إلى ضوء النهار» . وبشكل عام ، فإن الصمت الطويل الذي يحمل الحضور والأمل هو الذي يساعد على ولادة كلام جديد . فالصمت مثل الأرض الرحيمة الصامتة التي تستقبل الحبة وتنتظر بصبر ان يذوب كل ما هو قاسٍ وثقيل من قشورها ، فتتجلّى الحياة . الصمت مثل الصدر الرحب الذي يغمر الإنسان بحنانه فيحس بكيانه .

أمّا نجاة فقد عبّرت عن خبرتها السيئة وقبلت أن تعيشها ، سنحت لها الفرصة للإصغاء إلى أعماق ذاتها فاكتشفت فيها عطشًا قديمًا لحرية وانطلاق سليمين ، كانا

موجودين في بداية حياتها . لقد أحبّت الحرية لأنها أحبت الحياة . أحبت أن تعيش ما هو جميل في داخلها ، وفي الحياة ، وكان حبها للحياة ناجمًا عن ثقتها بنفسها وبالحياة . ولكن المجتمع أفهمها أن الحرية ليست أمرًا حسنًا ، وبالتالي هي ليست شخصًا صالحًا ، ما دامت تسعى إلى ما هو ليس بصالح . فقتل ثقتها بنفسها . وإذا أرادت نجاة أن تنطلق من جديد فعليها أن تجد أُناسًا يحبون حبها لهذه الحرية السليمة ، ويدعمون ثقتها بنفسها . ومن يرى نجاة وقد اكتشفت حريتها ، يصغي إليها ويقول لها بصمته : «أنا لا أحكم عليك ، بل احترم حريتك ، وأفرح بانطلاقك . في قلب هذا الصمت أنت في أمان ، وفي حضنه تستطعين أن تولدي مرة أخرى ، وتنطلقي منه إلى الحياة . كوني مثل حبة الحنطة التي تستطيع أن تولد مرة أخرى في حضن صمت الأرض وتشق طريقها إلى قلب الحياة» .

وتصل نجاة بمسيرتها إلى مرحلة هامة . أتتجرأ الآن على الخروج من هذا الحضن إلى الحياة ، لتعيش ذاتها ، وتواجه الناس الذين أرادوا قص أجنحتها ، لتقع في مستنقع الاحتقار ؟ أتستطيع أن تعيش الآن من ذاتها . وتعطي الآخر ذاتها ، دون أن تذوب فيه ، دون ذاتها ؟

لقد وجدت نجاة بعد خروجها من هذا الحضن جماعة أفسحت لها المجال لتحلّق وتنطلق بثقة في نفسها . وجود هذه الجماعة مهم كي لا يحس الإنسان بنفسه وحيدًا في مواجهة هذا المجتمع الكبير الذي يكون أحيانًا بلا رحمة

وبلا تقدير، لشخص يحب أن يعيش علاقة حقيقية مع ذاته، مع الآخر ومع الله.

ونتمنى للأمهات اللواتي ذبن إلى حدٍ ما في أولادهن أن يحققن مسيرة تشبه مسيرة نجاة. فهؤلاء الأمهات قد اختبرن قبل زواجهن شيئًا جميلًا، ولكنهن بزواجهن فقدن أجنحتهن، فجعلن من أولادهن أجنحة لهن وطرن بفضلها، ولو لم تنجب هؤلاء الأمهات أولادًا لوقعن في المستنقع. من الأمهات من تعي هذا الخطأ، فتتذكر حالها قبل الزواج وتقول لنفسها: «لماذا لا أستطيع أن أعيش لنفسي». ومن كانت منهن سعيدة قبل الزواج تدرس، وتعمل، وتمارس هواياتها، وتذهب إلى الحفلات والرحلات، وتتمتع بشخصية قوية، وتعرف كيف تتصرف، متكيفة مع كافة الظروف، وتتساءل أين اختفت هذه الشخصية، وتحن إلى هذه المرحلة، فتتجرأ على طرح هذا السؤال: «لماذا لا أعود إلى سابق عهدي، أعيش قليلًا لنفسي، أمنحها الوقت الكافي وأترك بين الحين والآخر زوجي وأولادي يدبرون أمورهم، فربما سيسعدهم أن يحسوا بمسؤوليتهم وبحريتهم».

فنرى أمهات ينطلقن مرة اخرى ويقمن مع بعضهن برحلات ولقاءات، ويفخرن بقولهن للعائلة: «نحن اليوم ذاهبات، دبروا أموركم».

وبقدر ما تقلق هؤلاء الأمهات، يتمنين أن يكن معًا دون همّ أو غمّ ويعشن ذاتهن أكثر فأكثر.

وجدنا من خلال الأمثلة السابقة أن الإنسان يتألّم بسبب نقص معيّن، دون أن يعي وجود هذا النقص، إذ من المهم أن يعي نقصه وتأثير هذا النقص في علاقته بالآخر، ليأتي بعد ذلك السؤال: «ما موقفه من هذا النقص».

في بعض الحالات، يستطيع الإنسان التخلّص من نقصه كما هو حال عامر الذي راح يعيش قرينته في نفسه؛ ولكن هناك أنواعًا من النقص، كنقص جمالي، لا يستطيع الإنسان أن يتخلص منها، ولكن يمكن قبولها. عندها، لن يبحث عن شخص جميل يعوّضه عن نقصه.

إن قبول السلبي يتطلب وجود الإيجابي، فالفتاة مثلًا يمكنها أن تقبل كونها غير جميلة إذا ما تفوّقت في مجال العلم، أو الرياضة، أو الفن، أو في أي مجال آخر. عندها، لن تعوّض عن نقصها بإمكانيتها، بل ستحاول قبول هذا النقص بسبب إمكانيتها، وستقول لنفسها إنها تملك أشياء كثيرة حلوة، فليس ضروريًا أن يكون وجهها جميلًا أو أن تستره بحجاب، بل تدعه كما هو. عندها لن تكون إمكانيتها حجابًا، بل تعبيرًا عن ذاتها، وهي تعيش مرتاحة لهذا النقص، راضية عنه. وهذا القبول لوجهها غير الجميل هو الذي يمنح وجهها الجمال. ولكن لا بد من وجود فيض في سبيل قبول وعبور النقص. وكما أن هناك أنواعًا من النقص، هناك أنواع من الفيض: فيض اجتماعي، وعائلي، ونفسي، وعقلي، وعاطفي وأخيرًا فيض أصلي صافٍ، فيض هذا الكنز الذي تحدثت عنه،

فيض هذه القوة التي تحب أن تتحقّق من خلال نمو ديناميكي، والتي تهب لكل إنسان ولكل مخلوق وجهه الخاص المميّز.

ويختبر الإنسان هذا الفيض إذا ما عرف كيف يصغي بصمت عميق وصبر كصبر أيوب إلى أعماق قلبه، حيث يخرج الماء الحي من ينابيع ذاته. وقد وجدنا أن المسيرة إلى النبع طويلة، وتتطلب الكثير من العزلة والصمت والإصغاء والدليل الذي يرشدنا دومًا إلى الطريق الصحيح؛ فعلى هذه الطريق حواجز وعوائق كثيرة، وفي كل مرة يكتشف فيها الإنسان أنه عبد لشيء معيّن، عليه أن يموت عن هذه العبودية حتى يتمكن من متابعة الطريق - فمن كان عبدًا لماله مثلًا لا يمكنه أن يسير على طريق النبع لأنه جعل من ماله نبعًا له - فيترك الأرض تستقبل قشور عبوديته حتى يتحرّر جوهر الحبة من قبضة هذه العبودية عليه، وشيئًا فشيئًا يصبح الإنسان متجرّدًا، حرًا من كل ما يقيّده، فيصل أخيرًا إلى النبع، ويصغي إلى صوت الماء، ويمكن أن يشعر فجأةً، وفي لحظة معيّنة أن ينابيع الحياة قد تفجّرت فيه كنعمة من السماء في نفسه لتجعله بكليته نبعًا. يتلقى من ذاته فيض الحياة الصافي، فتصبح نفسه فيضًا يفيض بشكل طبيعي على الآخر. في هذه اللحظة بالضبط، يختبر الإنسان بفرح عظيم أنه في أعماق أعماقه حياة فيّاضة، وأنه ليس فارغًا أو ناقصًا، بل ممتلئًا، موجودًا في حد ذاته، معطيًا، فيشعر بأنه متأصّل في كيانه الأصلي، يعطي تلقائيًا دون أن يقول: «أنا موجود، وسأعطي بعد

ذلك». بل يقول: «أنا عطاء لأني موجود». يختبر أن الحياة في حد ذاتها عطاء، وكلما عاش حياته الأصلية أكثر، كان عطاؤه أكبر، وأن هذا العطاء يتدفق من كيانه دون مقابل، كما يتدفق الماء من النبع، وكما ينبعث النور من الشمس وكما يفوح العطر من الزهر. فالشمس لا تجبر نفسها مثلًا أن تكون نورًا، ولا تقول: أنا نور وسأعطي نورًا. فهي نور منير، لا تدري أنها تعطي ولا تنتظر شيئًا مقابل هذا العطاء.

يقول جبران خليل جبران في كتابه النبي ص ١٦:

«بعض الناس يعطي القليل ممّا عنده من كثير،

أولئك يعطون تباهيًا بالعطاء، فتذهب نياتهم المستورة بطيّبات، وبعضهم لا يملك إلّا القليل فيجود به كله.

أولئك هم المؤمنون بالحياة وما فيها من خير، فلا تفرغ خزائنهم أبدًا.

وبعضهم يعطي فرحًا، وفرحته جزاؤه.

أو يعطي متألّمًا، وفي الألم تطهير لنفسه.

وبعضهم يعطي ولا يحس ألمًا، ولا يلتمسُ فرحًا، ولا يدري أن العطاء فضيلة.

أولئك يعطون كأنهم ريحان الوادي يبث عطره في الفضاء.

على فيض أمثال هؤلاء تتجلّى كلمة الله، ومن خلال عيونهم تشرق بسماته على الأرض».

أمّا متى فيقول في إنجيله:

«أمّا أنت فإذا تصدّقت، فلا تعلم شمالك ما تفعل يمينك. لتكن صدقتك في الخفية» (متى ٦/٣ - ٤).

نرى في هذا العطاء أن نقص الإنسان لا يلوث صفاء العطاء، ولكن ما هو مصير نقص الإنسان إذا حوّله فيضه الداخلي إلى عطاء مجاني؟ إن هذا الماء الغزير، الذي يندفع من النبع الداخلي كسيل جارف، سيجرف كل ما يصادفه في طريقه، ونجد عادة في هذه السيول الجارفة أخشابًا، وعلبًا فارغة، وإطارات، وأسماكًا بالية، وقمامة ... ولكن وجود هذه الأشياء لا يكون مزعجًا ولا يوقف السيل ولا يلوثه، نظرًا إلى حركة الماء العفوية. والأمر نفسه يحدث عندما يندفع سيل الحب. فهذا السيل سيجرف كل شيء في طريقه من نقص وضعف وخطايا وجروح.

فلا يكون نقص الإنسان مصدر العطاء، بل يكون ضمن حركة الحب. فإذا اكتشف الإنسان في نفسه الفيض الفياض، تمكّن من العيش مع نقصه، دون أن ينطلق منه في علاقته مع الآخر، بل ويمكن القول أحيانًا إن النقص يتحول إلى ممر يعبره الماء الحي نحو الآخر. فبدلًا من أن يملأ الإنسان نقصه من الخارج باستغلال الآخر، يمتلئ هذا النقص من الداخل بخروج الفيض منه، فيكون الفيض هدية الحب للآخر. فالإنسان غير المثقف وغير الذكي، والذي لم يقبل نقصه، يبحث أحيانًا عن أشخاص أذكياء، ومثقفين، حتى يغطّي نقصه. لكنه، بعد أن يختبر فيضه الداخلي، يقبل ببساطة كونه غير ذكي، فلا يعود ينزعج لسماع الناس يقولون إنه غبي. وعندما يرى الناس أنه قبل نقصه ببساطة، يدركون أنه في

قبول هذا النقص يكمن فيض داخلي وحياة متدفقة.

فالفيض الحقيقي يتجلّى في قبول نقص معيّن، في تخطّي الموت إلى الحياة، في الخروج من العبودية إلى الحرية.

نقول أحيانًا: «الحب أخذ وعطاء».

من المؤكد أن الحب عطاء، ولكن هل يا ترى الحب أخذ؟.

الحب لا يأخذ، ولا يعطي كي يأخذ، بل يعطي ويتلقى عطاء الآخر. الحب عطاء متبادل دون أخذ. أما في الأخذ، فالآخذ يأخذ شيئًا من الآخر دون أن ينتظر عطاءه. وإذا أراد الإنسان أن يأخذ شيئًا منّا، فنحن نحب أحيانًا أن نقدمه إليه دون أن نتركه يأخذه منّا. نسمع مثلًا أحدهم يقول للآخر:

– هل من الممكن أن تقرضني قلمك دقيقة واحدة؟

– ولِمَ لا، ليس من الضروري أن تقترضه، فأنا أقدمه لك.

– الحب الحقيقي لا يمكن أن يكون إلّا ملآن. لا يمكنه أن يفرغ، ويذوب أو يموت في الآخر. الحب يبقى بعطائه ممتلئًا، ولا يتمنى إلّا أن يصير الآخر ممتلئًا أيضًا، الحب لا يدخل الآخر حتى يموت فيه ويستغله، بل حتى يحييه ويجعله هو أيضًا نبعًا حيًا. العطاء المجاني يثير العطاء المجاني عند الآخر. وهكذا نكون أمام علاقة حب كل

واحد فيها يحافظ على ذاته المختلفة، والمستقلة، والمعطية والحرة.

عن هذا الحب يتحدث جبران خليل جبران عندما يتحدث عن الزواج:

«ثم قالت له المطرة ثانية: وما رأيك في الزواج أيها المعلم؟ فأجاب قائلًا: قد ولدتم معًا، وستظلون معًا إلى الأبد.

وستكونون معًا عندما تبدّد أيامكم أجنحة الموت البيضاء.

أجل، وستكونون معًا حتى في سكون تذكارات الله.

ولكن فليكن بين وجودكم معًا فسحات تفصلكم بعضكم عن بعض، حتى ترقص أرياح السماوات فيما بينكم.

أحبوا بعضكم بعضًا؛ ولكن لا تقيدوا المحبة بالقيود، بل لتكن المحبة بحرًا متموجًا بين شواطئ نفوسكم.

ليملأ كل واحد منكم كأس رفيقه. ولكن لا تشربوا من كأس واحدة. أعطوا من خبزكم كل واحد لرفيقه ولكن لا تأكلوا من الرغيف الواحد.

غنوا وارقصوا معًا، وكونوا فرحين أبدًا، ولكن فليكن كل منكم وحده، كما أن أوتار القيثارة يقوم كل واحد منها وحده ولكنها جميعًا تُخرج نغمًا واحدًا.

ليعطِ كل منكم قلبه لرفيقه، ولكن حذار أن يكون هذا العطاء لأجل الحفظ.

لأن يد الحياة وحدها تستطيع أن تحتفظ بقلوبكم.

قفوا معًا، ولكن لا يقرب أحدكم من الآخر كثيرًا: لأن عَمُودَي الهيكل يقفان منفصلين.

والسنديانة والسروة لا تنمو الواحدة منهما في ظل رفيقتها».

وإن صادف الحب مَن يريد استغلاله أو قتله، فهو لا

يخشى شيئًا، ولا يأسف لحاله أو يغضب من الآخر. إنه يأسف لحال الآخر ويرأف به. فالحب لا كرامة له، ويهان، فلا يعود إلى ذاته كي يتألم أو يصدم، أو يحس بالإهانة، أو يدافع عن نفسه، أو يعاقب الآخر، بل يبقى حركة عطاء مستمرة لكل إنسان، أيًا كان موقفه من الحب.

وإذا استقبل الإنسان الحب بدلًا من صده، فهو يولد مرة أخرى، ويتحول من إنسان عنيف إلى إنسان حنون، إذ ليس في الدنيا ما يستطيع أن يوقف سيل الحب الجارف وما من أحد يستطيع أن يطفئ نور الشمس:

يقول لنا متى:

سمعتم أنه قيل: «العين بالعين والسن بالسن» أمّا أنا فأقول لكم: «لا تقاوموا الشرير. مَن لطمك على خدّك الأيمن، فاعرض له الآخر. ومَن أراد أن يحاكمك ليأخذ ثوبك، فاترك له رداءك أيضًا. ومن سخّرك أن تسير معه ميلًا واحدًا، فسِرْ معه ميلين. من سألك فأعطه، ومَن استقرضك فلا تعرض عنه.

سمعتم أنه قيل: «أحبب قريبك وأبغض عدوك». أمّا أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم وادعوا لمضطهديكم فتكونوا بني أبيكم الذي في السماوات، لأنه يُطلع شمسه على الأشرار والأخيار، وينزل غيثه على الأبرار والفجّار. فإن أحببتم من يحبكم، فأي أجر لكم: أوَليس العشّارون يفعلون ذلك؟ وإن سلّمتم على إخوانكم وحدهم، فأي شيء غريب فعلتم؟ أوَليس الوثنيون يفعلون ذلك؟ فكونوا أنتم كاملين، كم أن أباكم السماوي كامل» (متى ٥/٣٨ - ٤٠).

والمسيح هنا هو الذي يتكلم: إذ نرى هذه الشمس

التي تعطي نورها للجميع، نرى حركة الحب الفياض التي تصل إلى القمة على الصليب. هذه الحركة تنطلق من نبع الحب الصافي الذي هو الله، أبو الجميع، ويسوع يرتوي دومًا من نبع قلب الله، ويدع الله ليكون نبعًا في حياته مع الآخرين.

ونلمس هذا الحب، أكثر ما نلمس من خلال موقف المسيح من الناس الذين أرادوا قتله: إنه لا يحكم، ولا يحقد ولا ينتقم منهم، بل وبحرية داخلية يشاركهم في الألم الموجود في أعماق شرّهم، ويغمره بنور حنانه. إذ إن هذا النور هو الوحيد القادر على تبديد ظلام الشر في نفوسهم.

ولقد سبر دوستويفسكي عمق هذا الحب في قلب المسيح، وجسّد فيضه في شخصية «الأبله»، في رواية «الأبله»، حيث يضرب أحدهم «الأبله» بعنف على وجهه، فيحدق إليه «الأبله» بعفوية وبنظرة محبة، ثم يغطي وجهه بيديه ويقول: كم تتألّم في أعماقك حتى تضربني بهذا العنف».

الخاتمة

وصلنا إلى نهاية المسيرة. ربما قال أحدنا: «ليتنا لم نبدأها، لقد تهنا، فقد أدركنا في البداية أن حبّنا كان وهمًا، وسرابًا في الصحراء، ما أن نقترب منه حتى نكتشف أنه فراغ. ولكن بعد أن أدركنا صعوبة مسيرة الحب، تعرفنا إلى الحب الحقيقي ولكننا أدركنا في الوقت نفسه أن هذا الحب لا نصادفه كثيرًا في حياتنا.

مثلنا كمثل الشعب العبراني الذي ترك مصر، بلد العبودية، وسار في الصحراء، ليصل إلى أرض الميعاد، أرض الحرية. وفي قلب الصحراء، راح يتذمّر ويقول: ما كان لنا ولهذه الصحراء، حيث لا ماء، ولا طعام. ليتنا لم نغادر مصر.

فكما أن هذا الشعب لم يكن يستطيع العودة، كذلك نحن لا نستطيع العودة أيضًا. نحن نعرف أن مواقفنا تخلو من حب كبير، ولكن ليس ممكنًا أن نعيش في الوهم. لقد نزعنا عنا الرداء القديم، ولم نجد بعد رداءً جديدًا. نحن عراة في عري الصحراء.

لقد كانت ترافق الشعب العبراني في الصحراء غيمة، وعمود نار. الغيمة كانت تظلّلهم، وعمود النار يرشدهم إلى الطريق. فمن يقدم لنا الظل في الحاضر وينير لنا الطريق في المستقبل؟ وما فائدة هذا الدليل إذا لم نؤمن بوصولنا إلى بلد الحب؟».

تبدأ المسيرة عندما يكتشف الإنسان الكذب في علاقته مع الآخر، فيسعى إلى مزيد من الحقيقة ولكن لا يمكنه أن يرغب في تخطي الكذب إلى مزيد من الحب والحقيقة إلّا إذا كانت الرغبة في الحب موجودة في نفسه، ولكن، قد لا تتحقّق هذه الرغبة لأن هناك الكثير من العوامل التي تبعدها عن هدفها، كأن لا تصادف الأشخاص الذين يحيونها من خلال حبهم.

يبقى سؤال أخير يسأله الكثيرون: «هل هناك أشخاص يختبرون الحب، ولو القليل منه، ويتمكنون من إحياء الآخر في الحب؟».

الإجابة على هذا السؤال مرتبطة بإيمان الشخص وخبرته الشخصية. ولكن لا يمكننا القول إن هناك حبًا كاملًا، كما وأن الله لا يقول للبشر: «عليكم أن تكونوا كاملين». إنه يقول: «كونوا كاملين انطلاقًا من العلاقة معي، دعوا نوري يدخل أعماقكم شيئًا فشيئًا، فيتجلّى حبي من خلالكم».

أما نحن، فيمكننا أن نقول لله:

«كم نحب أن نستقبل حبك، فيثمر فينا ويتجلّى من خلالنا».

المحتويات

المقدمة العامة ٥

القسم الأول: الحب المزيّف ٩

الفصل الأول: **العلاقة بين الحبيب والحبيبة** ١١
أ) المثال الأول ١١
ب) المثال الثاني ١٥
ج) المثال الثالث ١٨
د) المثال الرابع ٢٢

الفصل الثاني: **العلاقة بين الأهل والأولاد** ٢٧
أ) الأم المضحّية ٢٧
ب) موقف الأولاد من الأم المضحّية ٣٥
ج) لماذا تضحّي الأم؟ ٣٩
د) الأب ٤٥

ملحق بالقسم الأول ٥٢

القسم الثاني : المسيرة إلى الذات ٥٥

الفصل الأول : **وعي وجود هذه المسيرة وأهمّيّتها** ٥٩

الفصل الثاني : **شروط المسيرة** ٦٣
أ) الإيمان بالكنز الخلّاق في قلب الإنسان ٦٤
ب) وعي صعوبة المسيرة : من الموت إلى الحياة ٦٩
ج) أهمّيّة المرافق ٧٤
د) أهمّيّة العزلة والصمت والإصغاء ٧٥

الفصل الثالث : **المسيرة في حدّ ذاتها** ٧٧

الخاتمة ٩٣

منشورات :
دار المشرق - ص.ب. ١٦٦٧٧٨
الأشرفية، بيروت ٢١٥٠ ١١٠٠، لبنان

التوزيع :
المكتبة الشرقية ش.م.ل.
ص.ب. ٥٥٢٠٦ - بيروت، لبنان

ISBN 2-7214-1138-1
9 782721 411389